

اعلام العرب

١١٩

الشيخ الأكبر
محيي الدين بن العربي
سلطان العارفين

تأليف: عبد الحفيظ فرغلي على القرني

0126944

اعلام العرب

(١١٩)

الشيخ الأكبر
محيي الدين بن العربي
سلطان العارفين

تأليف: عبد الحفيظ فرغلي على القرني



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى : اليبير جورجى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا »

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد ..

فهذه سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفاضل ، الذين
تركوا ثروة ضخمة من الآثار والآراء والأذواق ، ضمنها عددا لا يحصى
يحصي من كتبه التي عدت عليها عوادي الزمان ، فما ضاع يعد
أضعافا مضاعفة لما بقي منها .

هي سيرة الصوفي المرسى العظيم « محيي الدين بن العربي »
الذي عاش في الفترة التي تجمع بين منتصف القرنين السادس
والسابع الهجريين ، هذه الفترة التي كانت زاخرة بالأدب
والتصوف ، في بيئة من أخصب بلاد العالم الإسلامي رقة وثوقا
وأدبا وتصوفا ، هي بيئة الأندلس ، التي على رباها نشأ عاقل
التصوف العظيم ، ثم خطت قدماء تذرع البلاد شرقا وغربا ،
بحثا عن المعرفة ، وارتياحا للحكمة .

هي سيرة « ابن عربي » الذي سطع نجمه في أفق الثقافة
الإسلامية الصوفية حيا وميتا ، ووجد من الأنصار والخصوم من

يتاصرون ويناثون ، وشغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان ، وأثار
ثائرة قوم وأعجاب آخرين ، وظلت كتبه الى ذلك الوقت منبعاً فياضاً
وكنزاً دفيناً يهرع اليه طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح
ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة .

هى سيرة ذلك البطل الذى أطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما
دلالتهما العظيمة .

أما اللقب الأول فهو « الشيخ الأكبر » وهذا اللقب لم يطلق
عليه الا بعد أن اجتمعت له أصول الرياسة ومقومات القيادة
الروحية ، وتخرج على يديه الكثير من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون
حوله بالآلاف فى كل مكان يحل فيه ، يتحلقون حوله ويستمعون الى
محاضراته ، وينصتون الى آرائه وأذواقه فى شعره ونثره .
فيجدون فى ذلك بلسماً شافياً لجراحهم ، ويعثا قويا لموات نفوسهم ،
وحفزا صادقا لهممهم ، وأرواء لظلمة أرواحهم . وكانوا هم عند
حسن ظنه بما أفادوا من تعاليمه ، وساروا على طريقه واستجابوا
لصادق نصحه ، فشفيت نفوسهم ، وأطمأنت قلوبهم ، وارتوت
أرواحهم وانطلقوا يحلقون فى فضاء الروح .

ولقد وضع « الشيخ الأكبر » مناهج تتناول الصوفى فى جميع
مراحل طريقه من لدن انبعاث الرغبة فى نفسه ، ثم مضيه مريداً
سالكا حتى تتكشف أمامه الطريق ، فيتمكن من الوصول الى غايته
بنجاح .

كما وضع مناهج للشيخ أنفسهم يستأنسون بها فى إرشادهم ،
كما يستأنس بها مريدوهم حتى يعرفوا القائد الحق فيحترمون له
قبولته ويحفظون له حقه وبذلك يزهر غرسه ويدنو ثمره .

وكان هو نفسه — سلوكاً وتصرفاً وقولاً وعملاً وأدباً وأخلاقاً —
فى الذروة العليا من الكمال الانساني الذى بلغ به مراتب أهل

الفضل ، وجعل شيوخ عصره يجلونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة •

من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب « الشيخ الأكبر » •

أما اللقب الثاني فهو « سلطان العارفين » وهو لقب يكاد يكون متلازماً مع اللقب السابق ، فلم يستحق ابن عربي لقب « الشيخ الأكبر » إلا بعد أن قبواً عرش المعرفة ، وأدرك من الأسرار ما عز على غيره ، واستطاع أن يشير إلى حقائق تاهت في الطريق إليها العقول ، وتفرقت العزائم ، وأدلى بمعان رائعة وحكم بالغة ، تدل على رسوخ قدمه ، وعلو كعبه وسعة معرفته •

ولقد شهد بذلك أعظم الصوفيين في عصره ، ومنهم أبو مدين في المغرب والسهروردي في بغداد ، وابن الفارض في مصر •

أطلق عليه أبو مدين هذا اللقب « سلطان العارفين » •

وقال عنه السهروردي : أنه بحر الحقائق •

وأدرك ابن الفارض روعة الفتوحات المكية التي كتبها ابن عربي فقال : أنها خير شرح لتأنيته المشهورة « نظم السلوك » •

وهذه تقارير أن دلت على شيء فأنما تدل على ما وصل إليه الشيخ الأكبر من تاللق ومقدرة •

ومن أجل ذلك أطلق عليه « سلطان العارفين » وهو جدير بهذا اللقب ، لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة في هذا الطريق الصوفي الخاص بالعقبات والمقاويز والمتاهات إلا وأدلى فيها ببيان واف ، وعبارات رائعة نظماً ونثراً • واتسعت معرفته فشملت غير العلوم الصوفية براعة ودقة وفهما وأداء •

هذه سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي سلطان العارفين ، التي نرجو أن تكون حافزاً لنا ، ومنازاً نهتدى به في حياتنا الجديدة • والله خير موفق ومعين ؟

عبد الحفيظ فرغلي القرنى

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله مصطفىا من خلقه ومجتباه من عباده وعلى آله وصحابه ومن سار على نهجه واتبع طريقته واهتدى بهديه الى يوم الدين ،

ويعد ..

فنحن بين يدي الطبعة الثانية من كتاب القطب الريائي سيدي محيي الدين بن العربي - رضى الله عنه - وقد صدرت الطبعة الأولى منه في سبتمبر عام ١٩٦٨ م في سلسلة اعلام العرب .

والامام محيي الدين بن العربي جدير بأن تكتب عنه الاف الصفحات وتصدر عنه مئات الكتب والمجلدات ، فقد شغلت حياته وافكاره ومؤلفاته الناس عبر القرون من لدن القرن السابع الهجرى حتى هذا القرن الخامس عشر الذى نعيش فيه ، واغلب الظن أنه سيظل يشغل الناس الى مالا نهاية ، فانه من الذين كتب الله لهم الخلود بسيرهم الزكية وأعمالهم المرضية .

ولقد شهدنا في مصر في نهاية القرن الرابع عشر لونا من هذه الشواغل التى اثارتها حياة الشيخ الاكبر ومؤلفاته ، ظهر فيما

فوجدنا به من تدخل سافر يحاول أن يحجر على حرية الفكر ويحول بين الناس والمعرفة ويقضى على أكبر مؤلفات ابن عربي « الفتوحات المكية » ذلك أن الهيئة المصرية العامة للكتاب قد نشرت منه أجزاء في طبعة أنيقة محققة تحقيقا دقيقا بقلم الدكتور عثمان يحيى ، ومراجعة وتصدير الدكتور إبراهيم مدكور وكلاهما علم من أعلام الفكر والعلم والثقافة ، وبرعاية المجلس الأعلى للفنون والآداب الاجتماعية في مصر ، وبالتعاون مع معهد الدراسات العليا في السوربون ، ويعني ذلك كله الاعتراف بأهمية كتاب الفتوحات المكية وبيانه يمثل خلاصة المعارف الصوفية والفكرية في الإسلام وقد نبه الدكتور المحقق إلى ذلك في صدر الكتاب .

فبعد أن أصدرت الهيئة من هذا السفر الجليل عدة أجزاء إذا بنا نسمع أصواتا تطالب بإيقاف صدور الكتاب وجمع ما صدر منه من الأسواق ، متذرة بحجة واهية هي أن طبع هذا الكتاب يعد ترفا علميا وغيره من أمهات الكتب السليمة في موضوعها ومنطقها أجدى بالرعاية والاهتمام وبأن بعض العلماء السلفيين أداتوا كتب ابن عربي فمن أجل هذه الادانة يجب أن يوقف تراث ابن عربي .

ولقد ثارت ضجة صاخبة حول هذا الأمر شاركت الأقلام الفكرية والأدبية فيها ، ومما يحمد لكثير من هذه الأقلام أنها وقفت وقفة موضوعية مدافعة عن هذا الإمام الكبير وسفره الجليل ، منوهة بضرورة حرية الفكر لأن هذه الحرية هي التي تمكن للعقل من أن يأخذ حقه الكامل في البحث والدراسة والاستفادة ، ولن يقهر الفكر بالحجر أبدا مهما حاول المتعصبون أن يفرضوا سلطانهم ويحولوا بين الإنسان وحقه في التزود من المعرفة الإنسانية والدينية ، ومن أطرف ما جاء في ذلك قول بعض الأدباء المفكرين : (١) ومن العجيب حقا أن ابن عربي قد تعرض للافتتيال في مصر منذ سبعة

(١) هو الامتداد انيس منصور في الاهرام ١٩٧٩/٢/٤ .

قرون فهل نهنيء انفسنا نحن المصريين على هذا الاصرار على قتل ابن عربي حيا او ميتا ؟ واذا كانت هناك نصيحة لاحد في هذا الموقف الاثيم فانني اقترح ان يشتري كتابا للامام السيوطي في دفاعه عن هذا الفيلسوف المتصوف ، الكتاب بعنوان تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي *

وكتبت حينذاك ردا على قرار المصادرة لم يتح له ان ينشر قلت فيه بعنوان « كل ممنوع مرغوب » : كان لي شرف الكتابة عن الشيخ الاكبر في سلسلة اعلام العرب ، وقد دفعني الى الكتابة عنه منذ اكثر من عشر سنوات ما دفع غيري من الاعجاب الشديد بشخصية ابن عربي الفريدة بين رجال التصوف الذين سجلت عنهم اروع الصفحات ، وانفرد هو من بين هؤلاء بلقيين لم يمنحهما اعتباطا هما (الشيخ الاكبر ، وسلطان العارفين) وقلت : ويكفي ابن عربي فخرا ان يتوفر على دراسته ودراسة آثاره المئات من الغربيين والمستشرقين الذين راعهم هذا النتاج الضخم من مؤلفاته الخاصة بالدرر الفريدة والتي انارت الطريق امام كثير منهم لاعتناق الاسلام ، ومن بين الذين اعتلوا بدراسته المستشرق الاسباني اسين بلاثيوس الذي قال عن الفتوحات :

ان كتاب الفتوحات يعد كتزا دفيننا ، والمستشرق الالماني بروكلمان الذي اورد ثبوتا كاملا لمؤلفاته في موسوعته الكبرى : تاريخ الادب العربي *

وفي دار الكتب المصرية عام ١٩٦٨ التقيت في قاعة المخطوطات بعالم الماني معني بدراسة ابن عربي وساعدني في ترجمة هذا الثبت الذي ضمنتته كتابي عن ابن عربي ولم يكن الجزء الذي يتضمن هذا الثبت مترجما الى العربية وكان التقائي بهذا العالم مصادفة اعتبرتها توفيقا من الله ونفحة من نفحات ابن عربي وعلامة من علامات التيسير في اتمام هذا البحث بحمد الله

والآن فلنتساءل : هل مصادرة كتاب تمنع تداوله ؟ انهم يقولون كل ممنوع مرغوب ، وبناء على هذا القول فقد اغرى الناس بسبب مصادرة كتاب «الفتوحات» بالاقبال على فكر ابن عربي وتتبع مصدره والاطلاع عليها في أى مكان ، ولئن صودر الكتاب في مصر فهل صودر في مشرق الأرض ومغاربها في وقت تقاربت فيه الأماكن وقصرت المسافات وتيسرت وسائل الاتصال والانتقال حتى أصبح من الممكن الوصول الى أى هدف بأيسر جهد وأقصر وقت ؟ ان مصادرة الفكر هي اقصى ما تبتلى به الأمم في عصورها وليس هناك أمة مستتيرة تخشى الكلمة وانما عليها ان تقارعها بالحجة والبرهان وهذا أساس من أسس الاسلام الذى دعا الى مجادلة غير المسلمين بالتى هي احسن ، ولم يدع الى مصادرة حججهم ، فما بالنا اذا كانت هذه الكلمة لا تبطن كفرا ولا تظهر نكرا ، ولكنها ربما تحتاج فقط الى شرح وتوضيح وبيان لأن صاحبها قصد الى غموضها صوتا للأسرار ؟

ليس من العجيب ان يثور المفكرون الأحرار على قرار مصادرة كتاب الفتوحات سواء منهم من يقرأ التصوف ومن لم يقرأه لأن المحرمات الفكرية كما يقول بعض الأدباء اخطر ما يواجه حياتنا الفكرية والثقافية ، فاذا ما صودر كتاب بلغ من العمر مئات السنين وطبعت منه آلاف النسخ وترجم الى اللغات العالمية فماذا نحن فاعلون اذا حاول واحد منا ان يستخدم عقله او ان يسلك مسلك الاجتهاد ؟

لقد اشتركت عشرات الاقلام الاصيلية الحرة في مناقشة هذه القضية ، وكان من العجيب حقا الا تفعل ذلك ، حتى اجبرت هذا القرار الجائر على التراجع واستأنفت الهيئة اصدار الاجزاء الباقية من هذا الكتاب الذى لم تمتد قامة حتى الآن لتطاول صاحبه هي نكراء

ومعرفته وصفاء روحه ، والآمل كبير ان شاء الله في ان ترى بقية
أجزائه .

وسيجد القارئ الكريم في هذا الكتاب جهدا متواضعا في انقاء
الضمير حول هذا الرجل العظيم ومؤلفه الخطير «الفتوحات» المكية
معتزفا بأنه جهد المقل ومحاولة العاجز ، وحسبى من ذلك أن يجعل
الله هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينير به الطريق الى معرفته
انه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

البيئة والعصر

كانت الأندلس هي الموطن الأصلي لابن عربي ، ففيها ولد وعاش ما يقرب من أربعين سنة من حياته العامرة الزاخرة الخصوبة .

والأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة « إيبيريا » التي كانت اقليما رومانيا مزهرا (١) .

وكان لموقع الأندلس الجغرافي الممتاز أثر كبير في خصوصية تربيتها واعتدال جوها وحسن مناخها ، مما كان سببا في صحة أجسام أهلها ، وقوة جناتهم ، وسعة ادراكهم وخصوبة خيالهم وسرعة خاطرهم وشدة ذكائهم ، مما دعا « لسان الدين الخطيب » أحد وزرائها الأعلام الى وصفها بقوله : « خص الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع ، وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وقراءة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح وصحة الهواء ، وايضا من ألوان الانساجان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة

(١) دائرة معارف الشعب مادة « اندلس » .

الطبائع ، ونفوذ الإدراك ، وأحكام التعمدن والاعتمار بما حصرمه الكثير من الأقطار مما سواها ، (١) .

ويقول أبو عامر السلمي عن إقليم الأندلس : « هو خير الأقاليم وأعدلها هواء وترابا ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا ، وهو أوسط الأقاليم وخير الأمور أوسطها » (٢) .

وكذلك قول أبي عبيد البكري عن الأندلس : « الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أموازية في عظم جبايتها . صينية في جواهر معادنها ، عدنية في مواقع سواحلها » .

تلك هي الأندلس التي افتتحها المسلمون في سنة ٩٢ هـ بقيادة « طارق بن زياد » وظلت تحت حكم الاسلام زهاء ثمانية قرون ، ازدهرت في خلالها الحضارة الاسلامية ازدهارا عظيما ، وكانت مركز اشعاع أمد العالم الغربي بالعلم والتقدم ، وأثار أمامه الطريق الى رسم مستقبل علمي مجيد ، وأنطلقت من آفاق الأندلس اشروعات مضيئة في شتى العلوم والمعارف والفنون ، مما جعلها تنافس شقيقاتها في المشرق علما وثقافة وتألقا وازدهارا .

ونبغ في ربوعها اعلام أفاضل دانت لهم الحياة ، وأحنت إمامهم قامتها الأيام أجلا لا واعزا .

واشتهرت في الأندلس مدن كانت لها سوابق ومزايا في تلك الأمور المتقدمة .

(١) نفع الطيب - ١ ص ٢٥٤ مطبوعات دار المأمون .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

من بين هذه المدن « مرسية » •

وتقع « مرسية » على وادى شقورة قريباً مصسبه ، وهو
قسم نهر الوادى الجديد الكبير •

وهذه المدينة كانت حاضرة شرق الأندلس فى العصر
الاسلامى ، وهى مدينة اسلامية محدثة ، أسسها الأمير
عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ هـ •

وازدهرت « مرسية » فى عصر الخلافة وعمرت ، وأصبحت من
حواضر الأندلس الكبرى ، حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبة
وتمزقت وحدة الأندلس •

وتعرضت « مرسية » لحكومات متعاقبة على اثر ذلك ،
حتى آلت الى المرابطين ثم الموحدين ثم استولى عليها ملك
قشتالة فى سنة ٦٤١ هـ •

وكانت « مرسية » بلد العلم والأدب ، وقد وفد من علمائها
عدد كبير الى المشرق ، وعلى الأخص مصر ، ومن بينهم أبو عبد الله
محمد بن يوسف المرسى المتخصص فى الفقه والكلام ، ومنهم
الشيخ الزاهد أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلى (١) •

ومنهم الفقيه الفصيح الجليل العالم الورع عبد الحق بن
سبعين الذى ذاع صيته وكثر أشياعه وتعددت مصنفاته (٢) •

ومن هذه المدن « أشبيلية » •

وتقع هذه المدينة على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير قرب
مصبه ، فى خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحرياً فى

(١) راجع دائرة معارف الشعب مادة اندلس •

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٨٨ •

جنوب أسبانيا ، ويتميز هذا النهر بشدة صعود المد فيه ، حتى
أنه ليصل إلى اثنين وسبعين ميلا ثم يحسّر ، وفيه يقول
الشاعر ابن سقر :

شق النسيم عليه جيب قميصه

فانساب في شطيه يطلب ثاره

ففضا حكت ورق الحمام بدوحها

هذا فضم من الحياء أزاره (١)

وتتوسط « أشبيلية » سهلا فسيحا ، وكانت زمن المسلمين
مدينة عامرة ، بها أسواق قائمة وتجارات رائجة ، وتمتعت
— ولا سيما في عهد بني أمية — بازدهار شامل في حياتها ، وأقام
فيها الأمراء المنشآت العظيمة ، وشهدت على تعاقب الولاة تقدما
لم تشهده من قبل لا في عصر الرومان ، ولا في عصر القوط ،
ووصل بها الأمر إلى أن أصبحت أعظم مدن أسبانيا الإسلامية
بعد أن تخلت لها قرطبة عن الزعامة .

وقد بالغ مؤرخو العرب في وصف روائع « أشبيلية »
وما كانت تنفرد به دون غيرها من الحواضر الأندلسية ، وكانت
— على حد تعبيرهم — عروس بلاد الأندلس وقاعدتها ، ويرع في
ظلالها كثير من الأدباء والعلماء والفنانين (٢) .

تلك هي الأندلس ، وفي هاتين المدينتين منها ولد « الشيخ
الأكبر » وعاش الشطر الأول من حياته ، في تلك الظلال الباسقة
من العلم والعرفان .

وكانت البيئة العربية في ذلك الوقت الذي نشأ فيه « سلطان

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) دائرة معارف الشعب مادة « أندلس » .

العارفين ، بيئة مهيأة خصبة لازدهار العلوم والمعارف ، وأدى التنافس الشديد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين في المشرق والمغرب الى ظهور كثير من العلماء المبرزين في شتى أنواع العلم والمعرفة ، وبخاصة في التصوف الذي امتدت فروعه وزكت أصوله واتسعت معارفه ، ووصل الى أقصى ما يمكن أن يصل إليه من نمو وازدهار ، ودان به كثير من العلماء الأجلاء الذين رسخت أقدامهم ومضوا في طريقهم ينشرون الهدى والنور من حولهم .

كان عصر « ابن عربي » عصرًا ذهبيًا في التصوف ، وشهد مشرق كثير من فحولته من أمثال السهروردي البغدادي ، والشاذلي ، والدرسي ، والبدوي ، وعمر بن الفارض ، وجلال الدين الرومي ، وعفيف الدين التلمساني ، وأبي الحسن الصباغ ، وأبي العباس المرسي وأبي العباس الخوارزمي الأندلسي ، وعبد الحق بن سبعين ، وأبي مدين المغربي ، وأبي الحجاج الأقصري ، وكثير غيرهم عمروا بهم البلاد الإسلامية في شرقها وغربها .

وقد نضج التصوف نضجًا كبيرًا ، وخطا على يد أربابه خطوات فسيحة ، وظهرت فيه الأنواع المختلفة التي تمثل اتجاهات الصوفية في ذلك العصر .

وكان ذلك ثمرة من ثمار النضج الروحي والفكري الذي ظهر في خلال ذلك العصر ، والذي أدت إليه حركة المد العلمية الواسعة التي شملت جميع أجزاء الدولة الإسلامية المتعددة الأطراف ، وكان حظ الأندلس من العلوم والآداب كبيرًا للغاية ، فتقدمت تقدمًا ملموسًا منذ العهد الأموي ، واشتغل منهم كثيرون

في الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية ، ونبغوا في الفلسفة والتصوف والنحو والشعر» (١) .

ويوجد مئات من العلماء الأعلام الذين كان لهم أثر مرموق في الرقى الفكري والعقلي والروحي ، ذكرتهم كتب التاريخ والطبقات ، وعلى أيديهم تخرج الآلاف من الطلاب الذين زخرت بهم المدارس والجامعات ، وامتلات بهم المدن ، وامتدت بهم آمال الأمة العربية والإسلامية ، وارتبطت بهم أوصالها ، حيث اتسعت حركة الهجرة بين شرقها وغربها .

وقد ترجم « المقرئ » في كتابه نفح الطيب لكثير من هؤلاء الأعلام الذين هاجروا من الأندلس إلى المشرق ، ومن بينهم الكثير من الصوفية .

وعلى قدر ما كانت ترقل فيه الأندلس من حلال الترف والحضارة والنعمة ، مما أدى إلى انصراف كثير من المترفين إلى المتعة واللذة واستغراقهم في اللهو واللعب كان هناك التصوف الذي لعب دورا كبيرا في حياة بعض الأفراد ، ووقف يلوح بعصاه ليهذب من ضراوة النفوس ويكبح من جماح الشهوات .

وكان التصوف قد تطور في أطواره المختلفة التي نقلته من مجرد نزعة تقشفية إلى التغافل في صميم الكون والنفس الانسانية واكتشاف أعماق الحياة ، وأصبح التصوف في هذا العصر يمثل ناحيتين هامتين ، أحدهما الجانب العملي ، ويقصد به ضروب المجاهدة والمكابدة وما تدعوان إليه من تهذيب خلقى ، وما تكلفانه من سلوك ألوان خاصة في الرياضة الروحية كالصوم والعزلة والسنهر والصمت والفكر والسياحة والذكر وغير ذلك .

(١) دائرة معارف الشعب مادة أندلس ص ١٩٧ .

وثانيهما الجانب النظرى الذى تثمره الناحية العملية من معرفة
لواجب الوجود وتعبير عما يشاهده العارف وعما يحس به فى
أثناء سيره فى طريقه من أحاسيس القرب أو المشاهدة أو الشوق
أو الأنس أو الوجد أو غير ذلك .

واختلفت تعبيرات الصوفية بين هاتين الناحيتين اختلافا
أثار كثيرا من النقاش والجدال ، بين مؤيد ومعارض ومدافع
ومهاجم ، وكونت هذه الحالة حركة فكرية كان لزاما أن تشغل
عقول العلماء والمفكرين .

فى هذه الظروف نشأ ابن عربى الشـيخ الأكبر ، الذى أثار
أكبر ضجة فى تاريخ التصوف ، وترك من خلفه ثروة ضخمة من
المعارف الصوفية ، وكان لأرائه الجريئة صدى عميق ظل الى
وقت طويل يثير ثائرة المعارضين وأعجاب المؤيدين .

نسبه ومولده ونشأته

أسـرـقـة :

ولد ابن عربى فى أسرة عريقة تعتز بأصلها العربى السامق .
فهو من نسل حاتم بن عبد الله الطائى المتوفى سنة ٥٧٨ م ، وهو
الجواد الفارس المشهور بكرم الأخلاق ، وكان مظفرا ، اذا قاتل
غلب ، واذا أسـر أطلق ، واذا غنم أعطى ، واذا سئل أجاب ،
ضرب المثل بجوده حتى لقد رويت عنه الأخبار ، ونسجت حوله
القصص فى الآداب العربية والفارسية والتركية والهندوسـتانية ،
وله ديوان شعر يدور حول الجود والخلق الكريم (١) .

وورث أولاده وأحفاده هذه الصفات منه ، واعتزوا بها
وحرصوا عليها ، وكانت مثار فخر لهم ، ولم ينس ابن عربى - وهو
شاعر مجيد - التغنى بهذه الصفات الكريمة التى ورثه اياها نسبه
العظيم ، فقال فى إحدى قصائده :

اذا قل سـيـفى لم تفـل عزائـمى
فلى عزـمات شـاحـذات صـوارمى

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٨٨ .

والا فسل عنا القنا هل وقت لنا
واسـيافنا يوما بقدر عزائمي
لنا الجود ، اذ كنا سـلالة حاتم
وما زال منذ قلده في تمـائمي
وقال في قصيدة اخرى :

لنا همـة ان الثريا لدوتها
نعم ، ولنا فوق السـماكين منزل
تقدمت سـبقا في المكارم والعلـا
وفي كل ما يتكى العـدا انا اول
ولم الف صمصاما بقدر عزائمي
ولو جمعوا الاسـياف عزمي اول
كذلك جودي لا يفي الغيث والثرى
اذا كان امـوالا به حين ابذل
انا العربي الصائمي اخو النـدى
لنا في العـلا المجد القديم المؤئل .

ولأسرة الطائي سابقة في الاسلام جديرة بالتسجيل ، وهي
ان عديا الطائي بن حاتم وكان يعرف بالجواد ابن الجواد ، وقد
على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة سبع ، واسلم
وحسن اسلامه ، ونزع له النبي صلى الله عليه وسلم وسادة
كانت تحته فاقامها له حتى جلس عليها ، ولما ارتدت العرب ثبت
عدي وقومه على الاسلام ، وكان اول صدقة قدم بها على ابي بكر
صدقة عدي وقومه ، وشهد فتح المدائن ، وشهد مع سيدنا على
حروبه ، وفقت عينه يوم الجمل وتوفي سنة ٦٨ هـ عن نحو
١٢٠ سنة (١) .

(١) نفع الطيب ح ٧ ص ٩٢ هامش .

تسميته :

ونسب ابن عربى كما ورد فى أكثر من مرجع هو : أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائى الأندلسى (١) . من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى بن حاتم الفقيه الصوفى المشهور الظاهرى (٢) .

وتضيف دائرة المعارف الإسلامية أنه كان يعرف فى الأندلس « بابن سراقه » ولعلها استندت فى ذلك الى ما جاء فى نفح الطيب نقلا عن كتاب « عنوان الدراية فى تاريخ بجاية » ولكن الواقع أن الذى يعرف بابن سراقه ليس هو الشيخ الأكبر ، ولكنه الامام محيى الدين أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم الأنصارى ، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، ولد سنة ٥٩٢ هـ وله مؤلفات فى التصوف ، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم ، وتوفى سنة ٦٢٢ هـ (٣) ، وكان أحد الملازمين لدروس سيدي أبى الحسن الشاذلى فى مصر (٤) . وقد ترجم له صاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » وذكر أنه : أبو بكر محمد بن أبى عبد الله محمد بن سراقه ، وأنشد له شعرا (٥) .

وكان الشيخ الأكبر يطلق عليه فى الأندلس : « ابن العربى » بالآلف واللام ، أما فى المشرق فكانوا يطلقون عليه « ابن عربى »

(١) دائرة المعارف الإسلامية - دائرة معارف البستانى - شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٤) أبو الحسن الشاذلى لعبد العظيم محمود ص ٤٣

(٥) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٨٨ .

من غير أداة التعريف . تمييزاً بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى
المعافرى ، قاضى قضاة « أشـبـيلية » وهو أحد علماء الأندلس
المشهورين الراحلين الى المشرق ، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة ،
وتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . قبل مولد الشيخ الأكبر
بسبعة عشر عاماً تقريباً .

مولده :

وقد اجمعت المصادر على أن ابن عربى الشيخ الأكبر ولد
يوم الاثنين سابع عشر من رمضان المعظم سنة ستين وخمسمائة
هجرية ، فى مدينة « مرسية » بالأندلس ، من أبوين كريمى المحتد ،
وفى ظل أسرة عريقة غنية مشهورة بالتقوى والصلاح .

أما أبوه على بن محمد فقد كان رجلاً صالحاً مواظباً على
تلاوة القرآن الكريم ، وله مع سورة « يس » صحيفة خاصة ،
ويبدو أنه كان مباركاً ، بدليل أنه قد تنبأ باليوم الذى سيموت
فيه فكان كما تنبأ ، ويحدث ابن عربى عن الكرامات التى صاحبت
أبيه يوم وفاته وعن الاشراف الذى كسا وجهه وغشى جسده حتى
أضياء ما حوله فيقول فى كتاب « الفتوحات المكية » : « وكان
قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرنى بموته ، وأنه يموت يوم
الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته ، وكان مريضاً شديداً المرض
استوى قاعداً غير مسستند ، وقال لى : يا ولدى ، اليوم يكون
الرحيل واللقاء فقلت : كتب الله سلامتك فى سفرك هذا وبارك لك
فى لقاءك ، ففرح بذلك ، وقال لى : جزاك الله يا ولدى عنى خيراً ،
فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه ، وربما كنت أنكر بعضه هوذا
أنا أشهده ، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده
من غير سوء ، لها نور يتلألأ ، فشعر بها الوالد ، ثم أن تلك اللمعة
انتشرت على وجهه الى أن عمت بدنه ، فقبلت يده وودعتـه

وخرجت من عنده وقلت له : أنا أسير الى المسجد الجامع الى أن يأتيني نعيك ، فقال لى : رح ولا تترك أحدا يدخل على ، وجمع أهله وبناته ، فلما جاء الظهر جاءنى نعيه فجئت اليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت ، وعلى تلك الحالة دفناه ، وكان له مشهد عظيم « (١) » .

وأما أمه فاسمها «نور» وهى امرأة صالحة كانت تحثه دائما على ارتياد طريق الصلاح ، واتباع سبيل الهدى . ولم تجزع حينما ترك ابنها الدنيا وسلك طريق الزهادة والتقوى . وحينما ألزم نفسه خدمة العارفة بالله « فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي » بأشبهيلية كانت أمه تزوره عندها ، فتقول لها فاطمة : يا نور هذا ولدى وهو أبوك ، قبريه ولا تعقيه . فلا تجد فى نفسها غضاضة مما تسمع ، وكانت تتلقاه بقبول حسن .

أما أخواله فمنهم الأعلام الذين سلكوا طريق التصوف ، وبلغوا منه مبلغا عظيما ، وقد كان أحدهم وهو « يحيى بن يغان » ملكا على مدينة تلمسان وكان فى زمنه رجل فقيه زاهد متبتل ، قد انقطع فى مسجد يعبد الله فيه .

وبينما كان هذا العابد سائرا فى طريقه بين مدينتى تلمسان وإقادير ، إذ لقيه « يحيى بن يغان » وقد أحاط به خدمه وحشمه . فسأل عن هذا الزاهد ، فقالوا له : هو أبو عبد الله التونسي عابد وقته ، فوقف بجواره ، وسلم على الشيخ ، فرد عليه الشيخ السلام ، ثم قال الملك - وكان يرتدى ثيابا فاخرة - للشيخ : يا شيخ ، هل يجوز لى أن أصلى فى هذه الملابس التى ارتديها ؟ .

فضحك الشيخ ، فقال له الملك : مم تضحك ؟

(١) ابن عربى حياته وملعبه ترجمة عبد الرحمن بدوى .

فأجاب الشيخ : من سخف عقلك وجهلك بنفسك ، مالك تشبيه عندى الا بالكلب ، يتمرغ فى دم الجيفة وأكلها وقذارتها ، فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول ، وأنت وعاء مليء حراما وتسأل عن الثياب ، ومظالم العباد فى عنقك !!

فبكى الملك « يحيى بن يغان » خال ابن عربى ، وخرج عن ملكه من حينه ، ولزم خدمة الشيخ ، فالزمه الشيخ بأن يحتطب ، فكان يحمل الحطب على رأسه ويمضى به الى السوق ليبيعه ، فيقتات منه ويتصدق بالباقي ، وظل على ذلك حتى مات ودفن بجوار الشيخ .

وكان الناس اذا جاءوا يقصدون الشيخ للتبرك ، ويطلبون منه الدعاء يقول لهم : التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان ، فانه ملك وزهد ، ولو ابتليت بما ابتلى من الملك ربما لم ازهد (١) .

وكان من أخواله أيضا « أبو مسلم الخولانى » الذى كان له فى الطريق الصوفى مجاهدات شاقة لا يصبر عليها الفحول من الرجال .

أما أعمامه فكان منهم « عبد الله بن محمد » الذى كانت له قدم ثابتة فى الطريق ووصل الى درجة من درجات كبار الصوفية ، وهى درجة جلاء البصيرة ومعرفة بواطن الأمور .

هذه عمومته القريبة ، أما عمومته البعيدة فقد مر بنا قول « المقرئ » الأنف عنه : أنه من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى ابن حاتم الفقيه الصوفى المشهور .

فى هذا الظل الوارف من الصلاح والتقوى نشأ ابن عربى ، فكان جديرا بأن يكون ابن هذه البيئة الطيبة الصالحة ، حتى

(١) ابن عربى ص ٦ .

إذا اكتمل شبابه اكتملت معه الهالة المشرقة الوضاعة من حوله
بزواجه من فتاة تقية صالحة ، هى « مريم » ابنة محمد بن عبدون
ابن عبد الرحمن البجائى ، التى كان لها اثر كبير فى دفعه الى
طريق الهدى والنور .

وكان مولد ابن عربى فى مدينة « مرسية » وكان يحكمها فى
ذلك الوقت « محمد بن مردنيش » ولم تلبث جيسوش الموحدون
أن زحفت الى الأندلس واستولوا على أغلب مدنها ، فأعد لهم
« ابن مردنيش » جيشا وخرج لقتالهم ، وتبادل الفريقان النصر
والهزيمة ، حتى انتهى أمر « ابن مردنيش » الى الادبار فهزم فى
ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ ، وابن عربى فى ذلك الوقت عمره
شهور ، وحاصر الموحدون « مرسية » فترة من الزمن ثم أقبلوا
عنها ، ثم عاودوا هجومهم عليها مرة أخرى ، وشددوا الحصار ،
وأخيرا استسلم « بنو مردنيش » وأثروا الطاعة « لأبى يعقوب
يوسف بن عبد المؤمن الموحدى » سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد أجمع المؤرخون على أن « ابن عربى » ولد فى « مرسية »
باستثناء « ابن الأبار » فيما نقله عنه صاحب نفح الطيب ، من
أنه من أهل « المرية » (٢) ، ولكن يبدو أن « المرية » محرفة عن
« مرسية » وقد أثبت ذلك فعلا الأستاذ أحمد يوسف نجاتى فى
هامش الصفحة التى ذكر فيها ذلك .

وكانت طفولة ابن عربى الأولى فى « مرسية » فى ظل ذلك
الصراع الدائر حول المدينة ، ولكن ذلك لم يكن ليشغل أسرته عن
إعداد هذا الطفل لمستقبله ، فدفعوه الى من يأخذ بيده الى التهيؤ
لحفظ القرآن الكريم .

(١) دائرة معارف الشعب مادة مرسية ص ٤٨ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ .

اقباله على طلب العلم - شيوخه في طلبه

في سنة ثمان وستين وخمسمائة تحولت الأسرة الى «أشبيلية» وهناك أقبل «ابن عربي» على التعلم ، وبدأ بعلوم القرآن الكريم .
وكان استاذة في علم القراءات «أبا بكر محمد بن خلف اللخمي الأشبيلي» وهو من أكبر العارفين بالقراءات والعربية ، وكان مقدما فيهما ، وله مؤلفات نافعة في اللغة والقراءات والتفسير ، توفي سنة ٥٨٦ هـ .

قرأ «ابن عربي» القرآن الكريم بالسبع على هذا الأستاذ الفاضل ، وانتفع في ذلك أيضا بكتاب «الكافي في القراءات السبع» عن طريق ابن مؤلفه : أبي الحسن بن محمد بن شريح الرعيني ، الذي كان يحدثه بهذا الكتاب عن أبيه .

وانتفع بهذا الكتاب أيضا عن طريق شيخ آخر هو : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد القرطبي المعروف بالشُّرَّاط ، وكان عالما بالقراءات وطرقها بصيرا باللغة العربية وآدابها ، له حظ من قرض الشعر فاضلا زاهدا ورعا ، وتوفي سنة ٥٨٦ هـ .

وقرأ «ابن عربي» كتاب «التيسير لأبي عمرو الداني» على شيخ جليل هو «أبو بكر محمد بن أبي حميرة» وكان والد هذا

الشيخ من أهل الحفظ والعلم والمعرفة ، وكان شديداً في الحق ، وتلقى ابنه أبو بكر عنه علومه ومعرفته وفهمه وحذقه .

وكان من شيوخ « ابن عربي » في الحديث والفقه والأدب : أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن زرقون المتوفى سنة ٥٨٦ هـ ، كان أحد سداة الرجال حافظاً للفقه مبرزاً فيه ، مشهوراً له بالبراعة في الأدب والمشاركة في قرض الشعر وحسن التصرف في طرفي النظم والنثر ، ولى القضاء ، وله مؤلفات ناقة .

ومن شيوخه أيضاً : أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي الأشبيلي ، وكان فقيهاً حافظاً عالماً بالحديث وعلمه ، عارفاً بالرجال موصوفاً بالخير والصلاح والزهد والورع أديباً شاعراً ، توفي سنة ٥٨١ هـ .

كذلك كان من شيوخه في الحديث والفقه : أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجدي ، وكان في وقته فقيهاً الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولا منازع ، لا يدانيه أحد في ذلك ولا يجاريه ، واليه كانت رئاسة بلده والانفراد بها ، ثم ورثه عقبه من بعده ، وكان فصيحاً خطيباً مفوهاً ، وقد جل قدره في « أشبيلية » وكان يعرف بالحافظ لكونه أعجوبة في سرعة ما يحفظه ، وبلغ به العلم إلى مرتبة عالية بحيث أن يوسف بن عبد المؤمن كان ينزل له عن فرسه أكراماً له . توفي سنة ٥٨٦ هـ (١) .

ومن شيوخه أيضاً « أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي » ، وكان له تحقق بالعلوم على تفاريقها ، وأخذ منها في كل فن ، وكان من أعلم أهل الأندلس بمذهب مالك ، وهو من أهل بيت عريق في العلم توفي سنة ٥٩٧ هـ .

ومن شيوخه « أبو القاسم جمال الدين عبد الصمد بن محمد ابن أبي الفضل الخرساني » قاضي القضاة ، ولد سنة ٥٢٠ هـ ، وكان قاضياً فقيهاً شافعياً صالحاً عابداً عدلاً ، وتوفي سنة ٦١٤ هـ .

(١) المغرب في حلى المغرب - ج ١ ص ٢٤٢ .

وسمع الحديث في « قرطبة » من « أبي القاسم خلف بن عبد الملك
ابن مسعود بن بشكوال » . وكان من علماء الأندلس ، وله
التصانيف المفيدة ، ولد في ذي الحجة سنة ٤٩٤ هـ ، وتوفي في
رمضان سنة ٥٧٨ هـ .

وقرأ ابن عربي كتباً كثيرة في مختلف العلوم والفنون ومن
بينها كتب « ابن حزم » حدث عن نفسه قائلاً في إحدى رسائله إلى
الملك المظفر غازي :

ومن شيوخنا الأندلسيين « أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن
ابن عبد الله الأشبيلي » رحمه الله تعالى ، حدثني بجميع مصنّفاته
في الحديث ، وعين لي من أسماؤها : تلقين المهتدي ، والأحكام الكبرى
والوسطى والصغرى ، وكتاب التهجد ، وكتاب العاقبة ونظمه
ونثره ، وحدثني بكتب الامام « أبي محمد بن أحمد بن حزم » عن
أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه « (١) » .

و « ابن حزم » كان حجة ، وامام وقته ، ومن كتبه التي يشير
اليها « ابن عربي » ويغلب أنه قرأها : كتاب الايصال لأفهم الخصال ،
لجمع شرائط الاسلام في الواجب والحلال والحرام ، وموضوعه فقه
الحديث ، ومنها : الاحكام لأصول الأحكام ، والفصل بين الأهداء
والنحل ، والاجماع ومسائله على أبواب الفقه ، ومنها كتاب مراتب
العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض (٢) .

عن هؤلاء الشيوخ السابقين وكثير غيرهم تلقى « ابن عربي »
علوم القرآن والحديث والفقه والأدب واللغة والأصول وغيرها .
وكان لتوجيهاتهم - لاسيما الأدباء منهم - أثر كبير في صقل

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٩٩ .

(٢) دائرة معارف البستاني مادة « ابن حزم » .

موهبة الأدبية والشعرية التي أعان عليها طبعه العربي ، واستعداده الموروث من أسرة عريقة في الشعر والأدب ونشأته في هذه البيئة الأندلسية ذات الطبيعة الساحرة التي تهذب الوجدان وتثير العاطفة وترقق الشعور وتنمي الخيال .

يقول « أسين بلاثيوس » : « ولما بلغ الثامنة من عمره انتقل مع أهله إلى « أشبيلية » بعد أن خضعت « مرسية » لحكم الموحدين ، ولابد أن يكون قد تلقى تربية أدبية ودينية كاملة ، لأنه في كتبه يشير مرارا عديدة إلى شيوخه في القراءات والقاريخ والأدب والشعر والحديث ، وقد أقرأه في أشبيلية خصوصا الكتب الرئيسية في كل فن » (١) .

شغفه بالعلم ومقدرته فيه :

وكان لدى « ابن عربي » استعداد قوى لطلب العلم وإقبال شديد على ارتياد موارده وانتهاال فيضه ، وكان عنده نهم شديد إلى قراءة كل مايتصل بفنون العلم المختلفة ، وهو يحدثنا في كتاب « المحاضرة » عن قراءاته لكثير من الكتب في مختلف الفنون : منها كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وكتاب المجالسة للدينوري ، وكتاب بهجة الأسرار للامام ابن جهضة ، وكتاب المبتدأ لاسحاق بن بشر ، وكتاب دلائل النبوة للامام الحافظ أبي نعيم ، وكتاب السيرة لمحمد بن اسحاق وكتاب السيرة لابن هشام ، وكتاب صفوة الصفوة لابن الجوزي ، وكتاب مسند الشهاب لابن سلامة القضاعي ، وكتاب المسند للأزرقى في حكاية تأليف الأزرق بن عمرو القضاعي الأزرقى ، وكتاب المسند الكبير لابن حنبل ، وكتاب السنن للسجستاني ، وكتاب الترمذي وصحيح مسلم وصحيح البخاري وغيرها (٢) .

(١) ابن عربي حياته ومذهبه ص ٨ .

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ج ١ ص ٥ .

وقد أشار هو الى هذه الكتب وغيرها بعد قوله : - « كل ما سطرته في كتابي هذا فمته ما شاهده أو حدثني به من شاهده ، ومنه ما نقلته من كتب مشهورة رويتها سمعا أو قراءة أو مداولة أو كتابة مثل ٠٠٠ » ثم يحدثنا عقب ذلك عن روايته عن كثير من الشيوخ في مختلف الفروع ، مما يشهد له بالحرص الشديد على طلب العلم والدقة في الرواية والتمكن فيها . ويذكر عددا من الشيوخ الذين روى عنهم العلم وانتفع بهم مما يدل على أنه كرس كل وقته وكافة جهده لطلب العلم ، ويشهد لذلك الانتاج الضخم الذي انتجه في مختلف المعارف .

وقد بدأ استعداده للتعلم مبكرا ، ولم يعق هذا الاستعداد ما يصرف مثله في هذه السن المبكرة من دوافع الصبا ، والرغبة في مشاركة الرفاق بعض لهوهم الساذج ومتعهم البريئة .

ولقد كانت تغلبه في بعض الأحيان طبيعة سنه ، فيقبل على الصيد في السهول المحيطة بأشبيلية ممتطيا صهوة جواد يركض به ، ولكن ذلك الاقبال لم يلبث أن يفتر سريعا تحت رغبة ملحة كامنة ، توحى اليه بوجوب انتهاء الوقت في تحصيل مالا يمكن تداركه بعد فوات الأوان ، وربما كان ذلك تعهدا الهيا لهذا الذي يوشك أن يصبح فيما بعد رجلا عارفا بصيرا ريانيا مبارك الخطوات .

ويفضل هذا الاقبال العظيم على الطلب والافادة أصبح هذا الطالب المجد استاذا يشار اليه بالبنان ، وأصبحت لديه القدرة الكاملة على المقارنة والاستنباط ، وأعانتة قريحته النفاذة على ادراك ما استكن من أسرار العلوم ودقائق الاشارات ، ولكنه مع ذلك كان متمسكا بطريقة السلف الذين لم يروا غير الأخذ بالكتاب والحديث والاجماع ، فتجده ينحو باللائمة على من ينسبه الى ابن حزم أو غيره من المجتهدين الأئمة ، وإن كان يكن لابن حزم وغيره من هؤلاء كل أجلال وأكابر، ويعترف بقراءة كتبهم وتعلمه عليها . جاء

في شذرات الذهب : « كان ابن عربي » مجتهدا مطلقا بلا ريب .
قال في رائيته :

لقد حرم الرحمن تقليد مالك
وأحمد والنعمان والكل فاعذروا

وقال أيضا :

لست ممن يقول : قال ابن حزم
لا ولا أحمد ولا النعمان « (١)

ويقول أيضا في ذلك :

نسبوني إلى ابن حزم وأنا
لست ممن يقول : قال ابن حزم
لا ولا غيره فسان مقالي
قال نص الكتاب ذلك علمي

أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول . ذلك حكمي
ويعلق الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل على هذه الأبيات بقوله :
« أبو محمد بن حزم الظاهري يأخذ بالنقل وظاهر النصوص
ويستكثر من السنن ، وعن طريق النقص في النقل وضعف الثقة في
الناقلين هاجم ابن حزم الملل الأخرى ، وراها لا تثبت أمام النقد
الصحيح ، و « ابن عربي » مع اتفاقه مع ابن حزم في الاعتماد على
النقل والنصوص لا يرى أن يأخذ بظاهرها وحسب ، بل ومعها
بواطنها ، ولذا فهو يتنصل من اتهام بعض الناس له من أنه مقلد
لابن حزم الظاهري ، ولم يقلد « ابن عربي » فقيها آخر . . . سواء
كان من الذين أخذوا بالظاهر ، أو جاسوا خلال الكلام وأخذوا بالرأي

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٩ .

كالقدرية أو المعتزلة أو الفلاسفة ، وإنما يعتمد في كل ما يقوله على نصوص الكتاب الكريم وأحاديث الرسول الشريفة وأجماع المسلمين ، غير واقف عند الظاهر ولا شاطح وراء الضلال ، ومهما كان تأويل « ابن عربي » لقول من الأقوال ، فإنه لم يعتمد علماً ولا حكماً إلا كما ورد عن الله وعن رسوله أو أجمع عليه جمهور المسلمين » (١) .

ومما يؤكد ذلك قوله في الفتوحات : - وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع صلى الله عليه وسلم » (٢) .

ويعلق ابن العماد على قول ابن عربي : لست ممن يقول قال ابن حزم قائلًا : « وهذا صريح بالاجتهاد المطلق ، كيف لا ؟ وقد قال : عرضت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جميعها عليه ، فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة ما قلتها ، وعن أحاديث ضعفت من جهتها قلتها ، وإذا لم يكن مجتهدا فليس الله مجتهد ، أن لا تراه فهذه آثاره » (٣) .

تفسره من الفلسفة :

تبهر « ابن عربي » في كل العلوم الشرعية واللغوية ، وأخذ منها حظه الكامل ، ووصل إلى مكانة مرموقة ، ولكنه لم يعرف عنه أنه اختلف إلى أحد علماء الفلسفة ليتعلم منه ، فقد كان بطبعه ينفر منها ، وهو يقص علينا في كتاب الفتوحات قصة لقائه مع فيلسوف الأندلس : « أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي » ومنها نفهم أنه لم يكن يرغب فيما كان يشغل به ابن رشد عقله ، فلنستمع

(١) محلة منبر الاسلام : ذو القعدة ١٣٨٦ هـ .

(٢) الكبرى الأحمر ص ٣ .

(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٩ .

اليه يقول : « دخلت يوما بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد . وكان يرغب في لقائي لما سمع ، وبلغه ما فتح الله به على في خلوتي ، وكان يظهر التعجب مما سمع ، فبعثني والدي اليه في حاجة قصدا منه حتى يجتمع بي ، فانه كان من أصدقائه ، وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طر شاربي ، فلما دخلت عليه قام من مكانه الى محبة واعظاما ، فعانقني وقال لي : نعم ، فقلت له : نعم ، فزاد فرحه بي لفهمي منه ، ثم أنى استشعرت بما أفرحه من ذلك ، فقلت له : لا ، فأنقبض وتغير لونه ، وشك فيما عنده ، وقال : كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الالهي ؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر ؟

قلت له : نعم ، لا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها ، فاصفر لونه وأخذ الأكل (١) ، وقعد يحوقل ، وعرف ما أشعرت به اليه ، وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الامام أعني مداوي الكلوم (٢) .

وطلب من أبي بعد ذلك الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا . هل هو يوافق أو يخالف ، فانه كان من أرياب الفكر والنظر العقلي ، فشكرا لله تعالى الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا ، وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة ، وقال : هذه حالة أثبتتساها وما رأينا لها أربابا ، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها ، والحمد لله الذي خصني برؤيته .

« ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية ، فأقيم لي رحمة من الله في الواقعة في صورة ضرب بيني وبينه فيها حجاب رقيق أنظر اليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني ، وقد شغل بنفسه عني ، فقلت :

(١) الأكل على وزن أحمد : الرمدة — قاموس .

(٢) مداوي الكلوم لقب أحد الاقطاب الذين عرف اليهم ابن عربي .

أنه غير مراد لما نحن عليه ، فما اجتمعت به حتى درج ، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراکش ، ونقل إلى قرطبة وبها قبره ، ولما جعل القابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تأليفه تعادله من الجانب الآخر ، وأنا واقف ومعى الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبیر ، كاتب السيد أبي سعيد ، وصاحب أبي الحكم عمر بن السراج الناسخ ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال : ألا تنظرون إلى ما يعادل الامام ابن رشد في مركوبه ؟ هذا الامام وهذه أعماله ، يعنى تأليفه ، فقال له ابن جبیر : يا ولدى ، نعم ما نظرت لأفض فوك ، فقيدتها عندى موعظة وتذكرة رحمهم الله جميعهم ، وما بقى من الجماعة غيرى ، وقلنا في ذلك :

هذا الامام وهذه أعماله

يا ليت شعري هل أتت أماله ؟ « (١)

فنحن نفهم من قول ابن رشد : انه في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة ... وهو يقصد « ابن عربى » بقوله هذا ... ان « ابن عربى » حين دخل الخلوة لم يكن على دراية بعلوم الفلسفة التى يعتبرها ابن رشد هى العلوم الجديرة بالاطلاع ، ومن لم يطلع عليها فهو جاهل . كما يفهم من قول « ابن عربى » عن ابن رشد : انه غير مراد لما نحن عليه عدم رغبة « ابن عربى » في تلقى هذه العلوم التى كان يدرسها ابن رشد .

وكذلك يفهم من حوار الأصدقاء يوم وفاة ابن رشد مدى الرثاء لحالته ، وكيف يرثى « ابن عربى » لحالة شسخص ويرغب في أن يكون عليها ؟

كما نفهم أيضا كراهيته للفلسفة من هذه القصة التى يقصها

(١) ابن عربى ص ١٢ .

في كتاب التدبيرات الالهية » رأيت لبعض أهل الكفر في كتاب
سماء » المرتبة الفاضلة » رأيت بيد شخص بمرشانة الزيتون ،
ولم أكن رأيت قبل ذلك ، فأخذته من يده وفتحته لأرى ما فيه ،
فأول شيء وقعت عيني عليه قوله : وأنا أريد في هذا الفصل أن
ننظر كيف نصنع لها في العالم .. فتعجبت من ذلك ورميت الكتاب
الى صاحبه « (١) » .

فاننا نرى أن « ابن عربي » حكم على ذلك الفيلسوف أنه من
أهل الكفر وذلك يبين مدى ما كان يمكن لهذا العلم من احساس .
ومع ذلك فإن « ابن عربي » لم يؤثر عنه التزمت والجمود ولكنه كان
يناقش قضايا هؤلاء الفلاسفة في هدوء ويرد على ما لم يقتنع
به بالمنطق .

مكانته في العلم وشهادة العلماء له :

واقعد بعدت همة « ابن عربي » في طلب العلوم وكانت له عزيمة
لا تعرف الكلل ، وتكبد في سبيل تحصيله كثيرا من المشاق ، وكان
كالمنحلة دائم الانتقال من روض الى روض ، حتى جمع في ذلك
نخيرة شهد له بها القاصي والداني ، وسيأتي بيان عن ذلك بعد .

وقد أجازته كثير منهم مثل « ابن عساكر » امام وقته في علمه
ودينه . والذي اشتغل عليه خلق كثير وتخرجوا على يديه وصاروا
أئمة فضلاء وكان مسددا في الفتوى - توفي في العاشر من رجب
سنة عشرين وستمائة بدمشق .

و « ابن الجوزي » الذي كان علامة عصره في الحديث وصناعة
الوعظ ، وقد صنف في فنون عدة منها : زاد المسير في علم التفسير .

(١) ابن عربي ص ٣١ .

أربعة أجزاء ، وله فى الحديث تصانيف كثيرة توفى سنة
سبع وتسعين وخمسمائة •

و « الحافظ السلفى » أحد الحفاظ الكثيرين رحل فى طلب
الحديث ودخل ثغر الاسكندرية سنة ٥١١ وأقام به وقصده الناس
من كل حدب ، وبنى له العادل وزير الخليفة الظاهر مدرسة بالثغر
سنة ٥٤٦ هـ توفى ٥٧٦ بالثغر •

وأجازة هؤلاء الأعلام « لابن عربى » شهادة لها قيمتها ، لأنها
تدل على مدى ما وصل اليه من مقدرة فائقة وبراعة لا نظير لها ،
وتفوق لا حد له فى سائر العلوم التى برع فيها هؤلاء الأعلام
الأفاضل •

سلوكه الطريق الصوفى - الرحلات التى قام بها

كان للبيئة التى نشأ فيها « سلطان العارفين » أثر كبير فى اتجاهه الصوفى فقد سبقت الإشارة الى صلاح أبويه وأعمامه وأخواله ، ثم من الله عليه بزوجة سالحة ، كانت نعم العون له على ارتياد الطريق الى الله .

وكان « ابن عربى » قد قلد أعباء وظيفة كاتب فى حكومة « أشبيلية » (١) ، ويذكر الشعرانى أن هذه الوظيفة كانت لدى بعض ملوك المغرب ، فيقول : « كان رضى الله عنه - أولا من الموقعين عند بعض ملوك المغرب » (٢) ويذكر صاحب نفح الطيب أنه « كتب لبعض الولاة ثم رحل الى المشرق » (٣) ويذكر ابن العماد فى شذرات الذهب نقلا عن المناوى أنه « كان يكتب الانشاء لبعض ملوك المغرب » (٤) .

ولا تعارض بين هذه النصوص فى حقيقة الأمر ، فقد كانت

(١) ابن عربى ص ٩ .

(٢) البواقيت والجوامر ص ٧ .

(٣) نفح الطيب ج ٧ ص ٩٣ .

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

أشبيلية ومرسية وغيرهما من المدن الأندلسية الشهيرة تحت سيطرة الموحدين ملوك المغرب .

ولكنه سرعان ما ضاق بقيود الوظيفة ، وتاق الى الحرية ليتفرغ لما اختاره لنفسه على هدى من الله من زهادة وتقشف ، وقد كان ذلك في حياة أبيه ، وساعده على ذلك مرض شديد أصابه فالزمه الفراش ، فلما برئ منه كانت نفسه قد خلصت من شوائبها كالذهب الذي تهذيب النار ، وتهيا للانصراف كلية الى حياته الجديدة ، ولكن تفرغه الكامل لها لم يتم الا بعد وفاة أبيه .

وكان في ذلك الوقت فتى في حوالى العشرين من عمره ، وكان قد سبق ذلك الانقطاع قيامه ببعض المجاهدات ومن بينها الزام نفسه الخلوة بين الدين والحين ، يدل على ذلك المحاورة التي تمت بينه وبين ابن رشد التي أشير اليها سابقا ، والتي أراد ابن رشد بواسطتها أن يجعل من « ابن عربى » موضوع دراسة ويبحث .

وحبيب الى « ابن عربى » العزلة ، فانقطع عن الناس وعاش بين المقابر . يقول الشعرانى « ثم انه طرقه طارق من الله عز وجل فخرج في البرارى على وجهه ، الى أن نزل في قبر فمكث فيه مدة ثم خرج » (١) . ويقول صاحب شذرات الذهب : « برز منفردا مؤثرا للتخلي والانعزال عن الناس ما أمكن ، حتى انه لم يكن يجتمع به الا الأفراد » (٢) .

ويحدث هو عن نفسه في كتاب الفتوحات قائلا : « ولقد كنت انقطعت في القبور مدة منفردا بنفسى ، فبلغنى أن شيخنا يوسف ابن خلف الكومى قال : ان فلانا - وسمانى - ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى (٣) ، وقد حدثت محاورة بين هذا الشيخ وبين

(١) اليواقيت والجواهر ص ٨ .

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

(٣) ابن عربى، ص ١٣ .

« ابن عربى » انتهت باعتراف الشيخ بأن الذى يجالس الأموات هو الذى يعيش بين الأحياء لا الذى يعيش بين القبور . وحقا ذلك ، فكم من ميت حى ، وكم من حى ميت . ولطالما سمعنا هذا الأثر : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، والقرآن الكريم يقول : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (١) .

بدأ تحول « ابن عربى » الى الطريق الصوفى مبكرا ، وبدأ يتقلمذ على كتب الصوفية ثم عقد العزم على التعرف الى رجالهم والبحث عن شيوخهم وأعانته مرآته الصافية على الانتفاع السريع بكل ما قرأ والافادة ممن لقي وعرف .

والمعرفة الصوفية ليس لها سوى مفتاح واحد ان فقدته الانسان حرم ، ولو كانت في يده حلقة بها مئات المفاتيح ، وهذا المفتاح هو العمل ، يصدق ذلك القرآن الكريم « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٢) . والأثر الشريف : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

ولقد كان « ابن عربى » عاملا بما يعلم ، فتفتحت أمامه مغاليق العلوم ، وأعطته ما غمض من أسرارها ، وتمكن في وقت وجيز أن يترجم عن مفهومات حيرت الفحول من الرجال ، وجعلته كعبة القصاد في الوقت الذى كان هو يشد الرحال نحو كل من يسمع عنه أنه ذاق من هذا الطريق شيئا . وهذا هو التواضع الكريم الذى جعله الله حلية الكمل من الرجال .

ولذلك نراه قد كثرت رحلاته في داخل الأندلس وخارجها ، وكلها رحلات لم يكن الهدف منها سوى لقاء الشيوخ وتحصيل العلم واكتساب المعارف وبناء الرجال . وبالرغم من أن « ابن عربى » وصل الى منزلة عالية كريمة

(١) سورة ق ٢٢ .

(٢) البقرة ٢٨٢ .

الا انه كان يعترف دائما بأن كل من يلقاه شيخ له ، فكان يقول :
شيخى فلان ، ولقيت شيخى فلان ، وجاء لزيارتى شيخى فلان .

وشيوخ ابن عربى فى الطريق كثيرون ، وكل شيخ له مزية خاصة
وذوق خاص والطريق الصوفى غاص بالأسرار وملئ بالعقبات ، وكل
سر له طريق لا يمكن النفاذ اليه الا بإرشاد يعرفه شيخ ولا يعرفه
آخر . فمن أجل هذا لم يأنف ابن عربى من أن يقتل على الشيوخ
جميعا ، وهذا الذى جعله يغرف من كل البحور ، ويفهم كل الاشارات
ويترجم بمختلف الأسرار ولا يلتوى عليه أى مسلك ويشهد له العام
والخاص .

فمن شيوخه الذين ذكرهم فى كتابه الفتوحات « موسى
البيدرانى » ويعد « ابن عربى » من الأبدال ، ويذكر أنه قدم اليه
خاصة « أشبيلية » ليراه ، رغم أنه لم يكن قد بلغ بعد
السادسة والعشرين من عمره ، وليس ذلك بغريب ، فليس التقدم
بالسن ، فمن معانى كلمة « الشيخ » أنه من بلغ مرتبة أهل الفضل
ولو صـبـيا .

ومن شيوخه أيضا « أبو عمران موسى بن عمران المارتنى »
وكان منقطع القرين فى الورع والزهد والعبادة والعزلة ، وكان ملازما
لمسجده داخل أشبيلية ، وكان الملوك يزورونه ولا يلتفت اليهم ، ربه
نثر ونظم فى الزهد مدون مشهور ، فمن نثره : كل ما يفنى ماله
معنى — من خف لسانه وقدمه كثر ندمه — من أعطاك رقه فقد
منحك وده — ملك قوادك من أفادك . وعن نظمه :

الى كم اقول ولا افعل	وكم ذا أحـوم ولا أنزل ؟
وأزجر عينى فلا ترعوى	وأنصح نفسى فلا تقبل ؟
وكم ذا تعطل لى ويحـها	بعل وسوف وكم تمطل ؟
وكم ذا أومل طول البقا	واغفل والموت لا يغفل ؟

توفي سنة ٦٠٤ هـ عن اثنتين وثمانين سنة (١) . وكان « ابن عربي » يجل هذا الشيخ كثيرا ، ويذكر عنه أنه سيد وقته ، ويعترف بأنه هو الذي أرشده الى كيفية تلقي الالهامات الالهية .
ومنهم « أبو الحجاج يوسف الشبربلي » وهو شيخ معتقد له كرامات ظاهرة وكان ملازما لتلاوة القرآن .

ومن شيوخه « يوسف الكومي » العالم الورع المجاهد الذي كان يحث أتباعه على لزوم المجاهدة ، حتى يمكنهم اجتياز العقبات في طريقهم الى الله .

ومنهم « أبو عبد الله بن المجاهد » و « أبو عبد الله بن قيسوم » وكلاهما من الشيوخ الأجلاء المدققين الذين بلغوا في محاسبة النفس على الأقوال والأفعال مبلغا كبيرا ، وقد ترك كل هؤلاء أثرا في نفس « ابن عربي » نظرا لما تختلف عليه مشاربهم وأذواقهم .

وقد رسم هو على ضوء لقاءه للشيوخ طريقه ومذهبه ، وبواسطتهم قد استنار سبيله ووضحت محجته ، ومضى في طريقه لا يلوي على شيء ، مضيئا الى زاده ما يراه ناقعا له في رحلته ومعينا له على وعورة الطريق . لذلك نراه يدقق في محاسبة نفسه فلا يكتفى بمحسباتها على الأقوال والأفعال كما فعل « ابن المجاهد » وابن قيسوم ، ولكنه يزيد عليهما في التدقيق فيحاسب نفسه على الخواطر ، وتلك نهاية الورع ، وما أحسب أن وصل اليها أحد الا من كان في مرتبة الصديقين .

ويقول « أسين بلاثيوس » عن « ابن عربي » : « انه عمل على تكوين روحه منذ سنوات شبابه بالزهد في الشهوات نماذج رائعة في الزهد قدمها زهاد في أشبيلية على رأسهم جميعا يجدر أن نذكر عبد الله المغاوري » (٢) .

(١) المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٦٠٤ .

(٢) ابن عربي ص ١٧ .

و « أبو محمد عبد الله المفاوري » شيخ جليل له كلام رائع وتوجيهات كريمة. منها قوله يوصي أبا الحسن الأشبيلي : « أمرك بخمس وأنهاك عن خمس ، أمرك باحتمال أذى الخلق ، وادخال الراحة على الأخوان وأن تكون أذنا لا لسانا ، والخامس أن تكون مع الناس على نفسك ، وأنهاك عن معاشرة النساء وحب الدنيا وحب الرياسة وعن الدعوى وعن الوقوع في رجال الله » فما أجمله من كلام خرج من نفس صافية !

وما أجدر « ابن عربي » بالانتفاع بمثل هذه التوجيهات وهو الحريص على تحصيل الجيد من القول والنافع من العمل ، ليتخذ منهما دليلا ومرشده .

ولقى من شيوخه « شعيب بن الحسين الأندلسي الملقب بأبي مدين » وقد دلت « ابن عربي » على لقائه خارقة من خوارقه العديدة^(١) ، وقد شهد هذا الشيخ لابن عربي ولقبه بسسلطان العارفين « وكلام الرجل أدل دليل على مقامه الباطن »^(٢) .

وأبو مدين أحد الصوفية العظام وأصله من أشبيلية ، طوف سائحا في الأرض وسكن « بجاية » مدة ثم « تلمسان » وكان من أهل العمل والاجتهاد وكان امام وقته ، وقد أقام مدرسة صوفية في مدينة « بجاية » تخرج فيها الكثير من الأجلة . وقد لقبه « ابن عربي » في أثناء جولاته التي قام بها في بلاد المغرب وكان يطلق عليه « شيخ الشيوخ » وقد خاض أبو مدين كثيرا من الأحوال ، وكان في مقام التوكل لا يشفق له غبار . توفي سنة ٥٩٠ أو ٥٩٤ على خلاف بتلمسان .

ومن الشيوخ الذين كان لهم تأثير خاص في حياة « ابن عربي »

(١) طبقات الشمراني ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) طبقات الشمراني ج ١ ص ١٦٣ .

الشيخ أبو العباس العرينى * ويذكر أسين بلاثيوس عنه : أنه كان من الشيوخ المتوفرين فى أشبيلية على تربية الشباب واعدادهم ليكونوا محل نظر الله فى الأرض ، فكانوا يجتمعون لديه ، ويقراون من علمه وينتفعون بزمهده ، وكانت له هيعة خاصة على مرديه ، ويعتبرونه جميعا أباهم وهم أخوة بين يديه ، يستشهد لذلك بتفسيره معنى « الأقربون » فى قوله تعالى « الأقربون أولى بالمعروف » بقوله : الأقربون هم الأقربون الى الله لا الأقربون فى الرحم * وهذا التفسير ذكره « ابن عربى » فى كتابه الفتوحات نقلا عن شـيـخـه العرينى *

وتلقى « ابن عربى » عن هذا الشيخ كثيرا من التوجيهات ، ونقل عنه كثيرا من المعلومات وربما كانت تحدث بينه وبين شيخه مناقشات فى بعض الأحيان ، فيحتد فيها « ابن عربى » ، لأنه لم يكن قد أخذ بعد على ذلك النظام الذى وضعه شيخه العرينى لمريديه من وجوب التسليم المطلق للشيخ ، فيتدخل « الخضر » حينذاك لرد « ابن عربى » الى الطريق السوى ، وهو وجوب عدم معارضة الشيوخ ، وقد ذكر ابن عربى فى كتابه الفتوحات هذه الوقائع فى أكثر من موضع ، نذكر منها هذه الواقعة نقلا عن كتاب ابن عربى : « الخضر صاحب موسى - عليه السلام - أطال الله عمره الى الآن بخلاف علماء الرسوم لخبر صحيح تأولوه ، قد رأيناه مرارا واتفق لنا فى شأنه أمر عجيب ، وذلك أن شيخنا العباس العرينى ، جرت بينى وبينه مسألة فى حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله صلى عليه وسلم فقال لى : هو فلان بن فلان * وسمى لى شخصا أعرفه باسمه وما رأيت ، ولكن رأيت ابن عمته ، فتوقفت فيه ولم أخذ بالقبول ، أعنى قوله فيه ، لكونى على بصيرة فى أمره ، ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذى فى باطنه ، ولم أشعر بذلك فى بداية أمرى ، فانصرفت عنه الى منزلى ، ولما كنت فى الطريق لقينى شخص لا أعرفه ، فسلم على ابتداء سلام محب

مشفق ، وقال لى يا محمد صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك
عن فلان ، وسمى لى الشخص الذى ذكره أبو العباس العرينى .
فقلت له : نعم وعلمت ما أراد ، ورجعت من حينى الى الشيخ لأعرفه
بما جرى ، فلما دخلت عليه قال لى : يا أبا عبد الله ، الاحتاج معك
إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها الى « الخضر »
يتعرض اليك ويقول : صدق فلانا فيما ذكره لك ؟ ومن أين يتفق
لك هذا فى كل مسألة تسمعها منى فتتوقف ؟ فقلت : ان باب التوبة
مفتوح ، فقال : وقبول التوبة واقع ، فعلمت أن ذلك الرجل كان
الخضر ، ولا شك أنى استفهمت الشيخ عنه : أهو هو ؟ قال :
نعم هو الخضر « (١) » .

ولا شك فى أن ظهور الخضر لابن عربى أمر له أهميته ، وهو أن
دل على شيء قائما يدل على قوة مكانته ورفعة منزلته ، وعلى أنه
سيكون ذا شأن عظيم فى الطريق ، والا لما كان ارشاده الى وجوب
التسليم للشيوخ وعدم منازعتهم على يد الخضر الذى أخفى الله
صورته عن الناس لحكمة تدق على الأفهام .

وقد عد بعض المحققين « الخضر » من شيوخ « ابن عربى »
فقد كان له معه اجتماع كثير (٢) . وانطلق « ابن عربى » فى طريقه
وقد وضع هدفه ، وهو يحاول الانتفاع بتوجيهات شيوخه والافادة
من كل من يلقاه من أهل الطريق . وقد لقى كثيرا منهم . وكان
دينه التواضع للجميع وخدمة الرفقاء ، وقد تعلم من ذلك علوما
جمعة ، واستفاد فوائد كثيرة ، فقد عرف كيف يسوس نفسه وكيف
يربى ارادته وكيف يجمع همه وكيف يصبر فى الشدة وكيف
يزهد عن ملك ويعف عن قدرة وكيف يوجد بما عنده ويؤثر غيره

(١) ابن عربى ص ٢٢ .

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٥٨ .

على نفسه • ورفع ذلك من همته فرمى بقصده الى الله ، عن طريق
الحب يعرفه ، أو عن طريق المعرفة يحبه •

ولم يأنف في طريق الصعود الى الله أن يتعلم من كل من يلقي ،
صغيرا كان أو كبيرا ، ذكرا كان أو أنثى ، عظيما كان أو حقيرا •

وقد مر بنا كيف أنه خدم امرأة أدرك أنها عارفة بالله اسمها
« قاطمة بنت ابن المثنى القرطبي » ووصل من اعزازها له وانقطاعه
لخدمتها أن كانت تدعوه بابنها ، وتقول له : أنا أمك الالهية
« ونور » أمك القرابية ، وقد مكث معها عامين يخدمها • كما عرف
امرأة أخرى مسنة اسمها « ياسمين » وكان يعتبرها من الأواهين ،
كما صاحب ، « أبا يحيى الصنهاجي » الضرير وهو من أصحاب
الكرامات و « يوسف الأستجي » وكان من الأميين المنقطعين الى
الله ، و « أبا عبد الله الشرقى » وكان من أصحاب الخسوفات
« وصالحا البربري » وكان صوفيا سائحا كثير التجوال • يقول :
« كان عندنا بأشبيلية رجل عابد حسن الصوت كثير الاجتهاد
سريع الدمعة دائم العبرة كثير الفكرة والتهجد ، بت معه ليالى
عدة ، فلم يكن يفتر ، فربما أسمعته في بعض الأحيان ينشد بصوت
غرد ، ودموعه تنحدر على خديه :

ورجـال وصالـوه	قطع الليل رجـال
وانـاس سـهروه	رقـدوا فيـه انـاس
ولا يسـتعذبـوه	لا يـمـيلـون الى التـوم
لم يـكونوا يعـرفـوه (١)	فكان التـوم شـيء

من هؤلاء جميعا تلقن « ابن عربي » فن الحكمة الصوفية ،

(١) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ٢٢ •

وتلقى دروس الطريق وآدابها وكون لنفسه شخصيته الفذة التي
أشرقت في الميدان الصوفي ، وكان لها ذلك الانتاج الغزير الوافر الذي
لا يكون الا لمن عمر الله أوقاتهم وبارك فيها . فكانت أيامهم الهية
موفورة الجنى مباركة الثمرات .

رحلاته في داخل الأندلس وفي بلاد المغرب :

وبدا « ابن عربي » مرحلة جديدة من حياته ، بدأ يسبح
في البلاد توقا الى ارواء ظمئه الى المعرفة ، وقد تعلم من تجاربه ان
المعرفة بحر لا ساحل له ، اذ كلما ازداد الانسان منها شربا ازداد
ظما .

و « ابن عربي » شأنه شأن الراسخين من رجال التصوف ،
فقد تصوف عن علم بعد ان تبحر في علوم الشريعة وشهد له فيها
كثير من اعلام الفقه والحديث والتفسير واللغة ، وهذه منزلة كفيلة
وحدها ان ترفع من قدره بين اقدار الرجال ، ولكن ذلك وحده
لم يكن كافيا لارضاء طموحه ، فقد كانت همته ابعد من ذلك ، وكان
مثله كمثّل حجة الاسلام الغزالي ، الذي سلك طريق التصوف بعد
ان اروى ظمأه من كافة العلوم الأخرى مع فارق يسير ، يظهر في
غزارة انتاج « ابن عربي » في علوم التصوف ، وغزارة انتاج الغزالي
في العلوم الأخرى . والسبب راجع الى تفكير « ابن عربي » في
ارتداد الطريق الصوفي ، اما الغزالي فلم يتصوف الا بعد ان افنى
زهرة شبابه في العلوم الظاهرية .

والسياحة عنصر من عناصر الطريق الصوفي ، فعن طريقها
يربى المرء ارادته ، ويهذب نفسه ، ويصحح عزمه ، ويوثق
صلته بالله ، ويقهر دواعي نفسه التي يولدها الركون الى الاستقرار ،
وفي السياحة اعانة على الفكر وحث على المعرفة واكساب للتجربة
وانس بالله والتجاء اليه واعتصام به ، لذلك لا نكاد نجد صوفيا
الا وله سياحاته المتعددة ورحلاته المختلفة .

بدأ « ابن عربى » رحلاته فى داخل بلاد الأندلس وفى بلاد المغرب العربى ، وكانت رغبته فى المعرفة رائده ، وكان لا يكاد يخلو بلد من البلاد التى رحل اليها من شيخ فاضل أو عالم جليل . وكان يتعلم من كل رحلة علما جديدا ، وكان يقيد كل ما يعن له من فوائد وفروضات ومعارف .

بدأ رحلاته بزيارة مدينة « مورور » قبل سنة ٥٩٠ هـ وهناك التقى بشيخ صوفى عظيم اسمه « أبو محمد المورورى » وكان عقده التوكل ، وكانت له معه صحبة جميلة أثمرت ثمارا يانعة وفوائد رائعة .

ورحل الى مدينة « الزهراء » ثم الى « قرطبة » ثم ارتد الى « أشبيلية » ولقيه بها كثير من الشيوخ الذين تسامعوا بعلو كعبه فى الطريق الصوفى ، فقصدوا اليه طلبا للتعرف به والافادة من علمه وخبرته .

ولم يلبث « ابن عربى » أن انطلق الى خارج الأندلس ميمما شطر المغرب العربى ، فذهب الى « تونس » فى حوالى سنة ٥٩٠ هـ ، ولكنه لم يطل اقامته بها فقد عاد الى « أشبيلية » فى نفس العام . وقد أفاد من رحلته هذه افادة كبرى ، فقد لقي فى تونس صوفيا كبيرا اسمه « أبو محمد عبد العزيز » الذى توطدت الصداقة بينه وبين « ابن عربى » كما لقي صوفيا آخر هو الشمسى « جراج ابن خميس الكتانى » من سادات القوم .

ورجع الى « أشبيلية » عن طريق محاذاته للشواطىء ، فمر على تلمسان، وزار قبر خاله « يحيى بن يغان » الذى سبقته الإشارة اليه .

وفى العام التالى سافر الى « فاس » ثم عاد الى « أشبيلية » مرة أخرى ، وفى عام ٥٩٣ هـ ارتد الى « فاس » وأقام بها فترة

عاكفا على العبادة والمجاهدة وملاقة الشيوخ الأجلاء من الصوفية ،
أمثال الشيخ « أبي عبد الله محمد بن قاسم » امام مسجد الأزهر
« بفاس » وكان عالما جليلا ، وله مصنفات مشهورة من بينها كتاب :
المستفاد في ذكر الصالحين من العباد ، وقد استمع « ابن عربي »
الى هذا الكتاب من مؤلفه .

وقد تتلمذ على « ابن عربي » كثيرون في « فاس » وكان يلتقى
بهم في مكانه المختار « بستان بن حيون » يستمعون الى محاضراته
الصوفية التي كان يلقيها عليهم .

ثم ذهب الى « سبتة » والتقى هناك ببعض الصالحين ، وكان
ذلك في طريق عودته الى الأندلس سنة ٥٩٤ هـ ، وهو يريد عبور
مضيق جبل طارق اليها .

وفي « غرناطة » التقى بشيخ جليل هو « أبو محمد عبد الله
الشكاز » ويصفه « ابن عربي » بأنه من أكبر من لقيهم في هذا
الطريق ، ولم ير مثله في الاجتهاد ، وكان ذلك اللقاء في صدر
سنة ٥٩٥ هـ .

وفي العام نفسه توجه الى مسقط رأسه « مرسية » ومنها
توجه الى « المرية » التي كانت مركزا هاما من مراكز التصوف في
الأندلس ، ويبدو أن « ابن عربي » قد اقام فيها فترة طويلة يعكف
على العبادة والتأليف ، ويلتقى بصديقه الصوفي « أبي محمد عبد الله
الغزالي » تلميذ الشيخ « أبي العباس بن العريف » أحد اعلام
التصوف ومؤلفيهم ، ومن الكتب التي ألفها « ابن عربي » في المرية
كتاب « مواقع النجوم » وهو من الكتب الهامة .

ولم يلبث في عام ٥٩٧ هـ أن اتجه الى المغرب مرة أخرى ،
وللتقى في « مراکش » بشيخ زاهد من شيوخ التصوف اسمه
« أبو العباس السبتي » ومن هناك انتقل الى « فاس » بناء على

أمر الهى صدر اليه ليصطحب من هناك شخصا اسمه « محمد
الحصار » الى المشرق .

هذه هى الرحلات التى قام بها « ابن عربى » فى داخل حدود
الأندلس والمغرب التى بدأت برحلته الى « مرور » قبل سنة ٥٩٠ هـ
بقليل وانتهت برحلته الى « مراکش وفاس » فى عام ٥٩٧ هـ .

رحلاته الى المشرق :

بدأ « ابن عربى » رحلته الكبرى الى المشرق سنة ٥٩٨ هـ
كما تقول المصادر . وتختلف وجهات النظر حول أسباب هذه
الرحلة ، فبعضهم يرجعها الى أسباب سياسية تعود الى ما ساد
البلاد فى المغرب من فتن واضطراب فى ذلك الحين ، بسبب أقول
شمس الموحدين . يقول الدكتور جودت الركابى : « ولما اضمحل
شأن الموحدين وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس فى أوائل القرن
السابع الهجرى ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية ،
غادر الأندلس فى تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا
سوء المصير وآثروا العمل فى جو أكثر استقرا وطمأنينة مثل
الشيخ محبى الدين بن العربى شيخ المتصوفين الشهير وابن البيطار
المالقي » (١) .

ويرى صاحب كتاب « الشعر الأندلسى » أن السبب فى
هجرة كثير من العلماء والشعراء ومنهم « ابن عربى » يرجع الى
اضمحلال الأندلس الاسلامى تحت وطأة الاسترداد التى شاعت فى
ذلك الوقت (٢) .

(١) الشعر الأندلسى لاميولوجوس ترجمة حسين مؤنس ص ٢٦ .

(٢) فى الادب الأندلسى للدكتور جودت الركابى ص ٥٧ .

..... ولكن يبدو أن « ابن عربي » لم يكن مختاراً في القيام بهذه الرحلة ، ولكنها كانت توجيهها إليها ، وليس ذلك بغريب ، فإن من صفت مرآتهم وارتقت أحوالهم أصبحت حركاتهم وسكناتهم لا تصدر إلا بناء على توجيه الهى يدركونه بأرواحهم وأذواقهم ، فقد تخلوا عن حظوظهم البشرية ، وارتقوا إلى مستوى يجعلهم ربانيين يدخلون في نطاق الأثر القدسى : عبدى أطعنى أجعلك ربانيا ، والربانى هو الذى يذكره القرآن الكريم بقوله : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (١) .

رأى رؤيا في « مراکش » يلقي إليه فيها الأمر بالتوجه الى مدينة « فاس » ومن هناك يصطحب شخصا اسمه « محمد الحصار » الى المشرق . ويستجيب ابن عربي للأمر ويلتقى بالحصار الذى يخبره بأنه رأى مثل هذه الرؤيا ، ويتجهان معا نحو « تلمسان » .

أما الرؤيا العجيبة التى تكشف عن مستقبل « ابن عربي » وعلو منزلته فهى التى رآها في « بجاية » في العام نفسه ، وهذه الرؤيا يقصها علينا صاحب نفح الطيب على لسان « ابن عربي » « رأيت ليلة أنى انكحت نجوم السماء كلها ، فما بقى نجم الا انكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف (وفى نسخة أعطيت البدور) فنكحتها ثم عرضت رؤياى هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ، وقلت للذى عرضتها عليه : لاتذكرنى ، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال : هذا هو البحر الذى لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه ، ثم

(١) آل عمران ٧٩ .

سكت ساعة وقال : ان كان صاحب هذه الرؤيا في المدينة ، فهو ذلك الشاب الأندلسي الذي وصل اليها « (١) » .

وبدأت رحلته الكبرى الى المشرق في العام التالي ٥٩٨ هـ وتوقف في « تونس » فترة طويلة بلغت حوالى تسعة شهور ، استأنف بعدها السفر قاصدا مكة المكرمة ، ومر في طريقه « بمصر » ، ولكن اقامته لم تطل بها في هذه المرة ، وفي « مصر » فقد صاحبه الذي أمر باصطحابه ، فقد مات ودفن بها ، وواصل « ابن عربى » رحلته الى مكة وحيدا .

وكانت شهرته قد سبقتة الى هناك ، وتوافد عليه الأولياء والعلماء من كل فج يطلبون رؤيته والافادة من علمه وقضله ومعرفته .

وتوثقت الصلة بينه وبين « مكين الدين أبى شجاع زاهد ابن رستم بن أبى الرجا الأصفهاني » امام مقام ابراهيم . ولهذا الشيخ أخت عالة مسنة أطلق عليها « ابن عربى » لقب : شبيخة الحجاز وفخر النساء : وله ابنة من أرباب الأحوال والمقامات . جمعت بين الحسنيين الظاهري والمعنوي ، ووصفها بأنها من العابدات العالمات السائحات الزاهدات ، وأطلق عليها لقب : شبيخة الحرمين ومربية البلد الأمين ، أما اسمها فهو « النظام » .

وكانت هذه الفتاة آية من آيات الله في العلم والفهم والابانة . وكان من الطبيعي أن تدور مناقشات علمية صوفية بين « ابن عربى » وبين أفراد هذه الأسرة الكريمة . ويعجب بهذه الفتاة التي بلغت في المعرفة حدا كبيرا ، وكانت مصدر الهام أوحى له يديوان « ترجمان الأشواق » الذي نسج فيه قصائده الرمزية على طريقة الصوفية التي يتغزلون فيها بانسان حى ، ولا يقصدون من وراءه

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٥٠ .

سوى الإشارة الى معان علوية دقيقة ، ثم لم يلبث أن وضع شرحا لذلك الديوان خوفا من أن يفسسبى الى ذهن أحد فهم خاطيء لا يتناسب وجلال هذه المقطوعات الصوفية الرائعة .

وأقام « بالطائف » قريبا من « مكة » فترة من الوقت وعاد الى مكة ، ولقى بها بعض الصوفية ، والتقت روحه مع روح بعض الذين فارقوا الحياة الدنيا من الأولياء والصالحين والصدّيقين .

وفي عام ٦٠١ هـ رحل الى « بغداد » ولكنه لم يبق بها سوى اثني عشر يوما استأنف بعدها السفر الى « الموصل » للقاء شيخ من شيوخ الصوفية اسمه : « على بن عبد الله بن جامع » وكانت لهذا الشيخ روح خاصة وتعلق شديد بالخضر .

واتجه « ابن عربى » صوب « مصر » في سنة ٦٠٣ هـ حيث أقام هناك في صحبة بعض الصالحين ، يعمرن أوقاتهم بالعبادة والطاعات في أحد البيوت « بزقاق القناديل » بالقاهرة ، وكان ذلك في خلافة الملك العادل ، وقد تعرض لحنة سنعرض لها فيما بعد .

ومن القاهرة توجه الى « الاسكندرية » حيث لم يبق فيها طويلا ، ثم غادرها الى مكة .

ويذكر الدكتور « على صافى حسين » أن « ابن عربى » التقى « بابى الحسن الصباغ » في أرض الصعيد بمصر ، في أثناء ذهابه الى مكة ، وحضر مجالسه ، و « الصباغ » شاعر صوفى مشهور ، ولكن شهرته لم تصل الى شهرة غيره ممن جاوزوا مواطنهم الأصلية وسساحوا في البلاد ، واسمه « على بن أحمد بن اسماعيل ابن يوسف » وكنيته : أبو الحسن الصباغ وأصله من مدينة « قوص » وتوفى سنة ٦١٣ هـ ، واشتهر بالزهد والورع والعمق في التصوف ، وأنه كان من خير شيوخ التصوف تربية ، وأستاذ

الشيخ « عبد الرحيم القناوي » أكبر رجال التصوف شهرة وأعظمهم قدرا وأبعدهم عينا في القرن السادس الهجري (١) .

والتقى في مصر أيضا بسلطان العاشقين « ابن الفارض » على رأى ، وسيأتى حديث عن ذلك بعد .

وأقام الشيخ الأكبر في « مكة » عقب رحيله من مصر إليها فترة لم تطل ، فسرعان ما أخذ أهبطه ، بناء على التوجيه الروحي إلى مواصلة السياحة ، فرحل إلى آسيا الصغرى وخط رحاله في « قونية » سنة ٦٠٧ ، وكانت « قونية » عاصمة الإقليم الخاضع للمسلمين في الدولة البيزنطية ، وقد استقبل هناك استقبالا حافلا ، وخرج الملك بنفسه لاستقباله احتراماً له وقياما بواجب الضيافة ، وأهداه داراً تقدر المصادر قيمتها بمائة ألف قطعة من الفضة ، ولكنه تصدق بها .

وربى في « قونية » كثيراً من المريدين ، على رأس القائمة منهم « صدر الدين القونوي » الذي كان من أحب تلاميذه إليه ، والذي كان له فضل كبير في تيسير تلقى علوم أستاذه للمتعلمين ، وفي حمل لواء الدفاع عنه ضد المهاجمين والناقدين .

ولم يستقر في « قونية » طويلاً ، فقد واصل تجواله في آسيا الصغرى ، واستمر في هذه الرحلة ما يقرب من عام ، مر في خلاله بكثير من المدن الهامة في الأناضول مثل « قيصرية » و « ملطية » و « سيواس » و « أرزن الروم » وقد كانت آسيا الصغرى تطلق على « أرمنية » و « تركيا والأناضول » .

ثم لم يلبث أن دخل « العراق » فزار « حران » في نفس

(١) الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ١٢٠ . الدكتور على صافي حسين .

العام يصحبه في هذه الرحلات بعض أخوانه من أهل الطريق ،
فيأتسون في سياحاتهم أشد ما يكون الأنس ، وينعمون بما يتلقونه
من فيض الهى وعدد روحى ، ولقد أشار « الشيخ الأكبر » في كتابه
« الفتوحات » الى هذه الرحلة بقوله يعجد أحد اخوانه الذى
سره منه حسن بره بأمه وعنايته بها : « أعرف ذلك الشخص
بعينه وصحبته وكان يعظمنى ويرى لى كثيرا ، واجتمعت به فى
« دمشق » وفى « سيواس » وفى « ملطية » وفى « قيصريّة » ،
وخدمنى مرة ، وكانت له والدّة كان بارا بها ، واجتمعت به فى
« حران » فى خدمة والدته ، فما رأيت من يبر أمه مثله ، وكان ذا
مال ، ولّى سنون فقدته من دمشق ، فما أدري هل عاش
أو مات » (١) .

وفى عام ٦٠٨ التقى « بالشهاب السهروردى » فى بغداد « حين
رحل اليها بعد انتهاء رحلته فى « أسيا الصغرى » مارا « بدنيسر »
فى ديار بكر ، وشاهد ماء الفرات وقد جمد تحت برد الشتاء
القارس فى أقصى الشمال حتى عاد « أرضا تمشى عليه القوافل
والناس والدواب ، والماء تحت ذلك الجليد حار » (١) .

و « السهروردى » كان فى ذلك الوقت شيخ الصوفية فى
« بغداد » ، وقد وصل فى التصوف الى منزلة لا تدانيها منزلة ،
ولذلك كان حرص « ابن عربى » على لقائه شديدا .

والصوفية لهم تقاليد خاصة فى مقابلاتهم ، وهى تختلف من
شخصية الى أخرى ، ولكنها تقاليد لها احترامها ، فمن تقاليد
بعضهم فى اللقاء الصمت ، ولكنه صمت أبلغ من الكلام . وهذا
ما حدث بين « ابن عربى » و « السهروردى » حين تقابلا ، كان

(١) ابن عربى ص ٦٨ .

بينهما صمت باللسان ، ولكن كان هناك تخاطب بالجنان ، خرس
الألفاظ وتحدثت اللحاظ ، ومكثا هكذا مدة طويلة ، وانصرف كل
منهما دون أن ينبس ببنت شفة . وحين سئل « ابن عربى » عن
« السهروردى » بعد ذلك أجاب بأنه : مملوء سنة من فرقه الى
قدمه . ولما سئل « السهروردى » : ما تقول فى « ابن عربى » ؟
قال : انه بحر الحقائق (١) .

و « السهروردى » هو شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد
ابن عبد الله بن عمرو بن عمويه « محمد » السهروردى كان امام وقته
لساننا وحالا ، ولد سنة ٥٣٩ هـ وتوفى « ببغداد » سنة ٦٣٢ هـ
ومن شعره الذى يدل على صفاء روحه قوله على طريقة الرمز
بالخمر :

لا تسقنى وحدى فما عودتلى
انى اشج بها على جلاسى
انت الكريم ولا يليق تكـرما
ان يصبر الندماء دون الكاس

وارتفعت منزلة « ابن عربى » فى « بغداد » ارتفاعا عظيما ،
وكثر التلاميذ من حوله ، وتطايرت شهرته الى كل مكان ، ولعله
وجد فى « بغداد » أنسبا روحيا جعله يركن الى الاستقرار فيها
فترة من الزمن ، قبل أن يتركها عائدا الى « مكة » فى سنة ٦١١ هـ .

ولم يبق فى « مكة » طويلا ، ففى رمضان سنة ٦١٢ هـ سافر
الى « قونية » مرة اخرى ، ثم تركها الى « حلب » فى السنة التى
تليها ، وصادف لدى أميرها تكريما عظيما جعله مقصد أصحاب
الحاجات والمظالم .

(١) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٦ .

وسافر الى « حمص » حيث وجد تكريم سلطانها له لا يقل عن تكريم غيره من الملوك والأمراء الذين سعدوا بلقاء « ابن عربي » في ممالكهم ، وأراد « أسد الدين شيركوه » سلطان « حمص » أن يظفر بإبقائه عنده نهائيا ، بأن يجعله يتخذ من « حمص » دار إقامة له ، فأمر له بعطشاء يومى يقدر بمائة درهم ، ولكن كيف يقبـل العصفور الطليق البقاء في قفص ولو كان من ذهب ؟

ولو كان « ابن عربي » هدفه الدنيا وطلب الأمان لوجد ضالته في كل مكان ذهب اليه وحل به ، ولكنه كان قد ملك عنان الزهد ، وانصرف بكليته عن الدنيا التي نظر اليها من وجهة نظر القرآن الكريم حيث يقول : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم » (١) فلم يلبث أن انطلق كعادته محلقا في فضاء الكون الواسع تصرفه القدرة حسبما تريد ، غامر « حمص » سائحا فمر « بملطية » وهناك ولد له غلام في رمضان سنة ٦١٨ هـ .

ولكن هذه الحياة المضيئة والتجوال المستمر والجهد المتواصل ، في ظل نظام صارم من الزهد والتقشف وملازمة العبادة والسهر كان لكل ذلك أثر كبير في توجه الشيخ الأكبر الى « دمشق » ليستقر نهائيا بها منذ سنة ٦٢٠ هـ . حتى وافقه منيته المحتومة ، قلبى نداء ربه الكريم وسعد بجواره هنيئا في سنة ٦٢٨ هـ .

وقد كان اختياره « دمشق » لتكون مقرا نهائيا له اختيارا مبنيا على هدى من توجيه الرسول الكريم — صلوات الله عليه وسلامه — الذى ثبت عنه أنه قال : عليكم بالشام ، فإنه خيرة الله من أرضه واليها يجتبي خيرته من عباده (٢) .

(١) سورة الحديد ٢٠ .

(٢) ابن عربي ص ٨٥ والمبارة منقولة من الفتوحات ج ٤ ص ٤٦٩ .

وفي دمشق بشره النبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق أمنيته في أخراج « فصوص الحكم » الذي يقول في مقدمته : « ٠٠ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها في العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق ، وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب ، وقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم ، خذ واخرج به الى الناس ، ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله وأولى الأمر منا » (١) .

حياة حافلة :

على أن استقرار الشيخ الأكبر في « دمشق » لم يكن يعنى خلوده الى الراحة فقد ظل «اكفا على مجاهداته في العبادة وتأليفه في علوم التصوف حتى آخر نفس من حياته ، وبذلك يمكن أن ندرك أن حياة « ابن عربي » كانت حافلة بجلال الأعمال منذ الأيام الأولى حتى الأيام الأخيرة منها .

لقد كانت هذه الحياة سلسلة متواصلة الحلقات من الرحلات التي لم تكد تنتهى واحدة منها حتى تبدأ أخرى ، ولم تكن هذه الرحلات الا هادفة دائما الى تحقيق أغراض كريمة ، وفي مقدمتها تحصيل المعارف أو لقاء الشيوخ أو تربية المريدين ، وفي أثناء ذلك كانت تظهر له مؤلفات نافعة تنم عن عبقرية فريدة في نوعها .

وإذا تتبعنا خطوات سياحته يمكن أن نقف على أحداث هامة في حياته ارتبطت بهذه السياحات ارتباط الأسباب بعسبباتها . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ - كانت رحلته الى مكة في فترات المتعاقبة موحية له بتأليف

(١) شرح القاشاني على فصوص الحكم ص ١٠ .

كتب من أهم كتبه التي كان لها دوى هائل في الأوساط العلمية والصوفية والأدبية .

منها « ترجمان الأشواق » الذي ألفه في سنة ٥٩٨ هـ ، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية عنه ما يأتي : « وتعرف «ابن عربي» أثناء إقامته بمكة عام ٥٩٨ هـ بامرأة عالمة من تلك المدينة ، ولما عاد إلى مكة عام ٦١١ هـ نظم مجموعة صغيرة من الأشعار الغزلية أشاد فيها بعلم هذه المرأة وجمالها الفتان وما كان بينه وبينها من حب ، وفي العام التالي رأى أنه من المفيد أن يتبع أشعاره بشرح صوفي ، وقد نشر هذه الأشعار وشرحها وترجمها إلى الانجليزية نيكلسون » (١) .

ولكن الحقيقة أن هذه القصائد ألفت في عام ٥٩٨ هـ ، وليس في عام ٦١١ هـ ، وأن الشرح هو الذي كان في عام ٦١١ هـ . يذكر ذلك « ابن عربي » نفسه في مقدمة « ذخائر الأطلاق شرح ترجمان الأشواق » حيث يقول : « لما نزلت مكة سنة خمس مائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء . . ولم أر فيهم مع فضلهم مثل الشيخ العالم الامام بمقام ابراهيم عليه السلام نزيل مكة مكين الدين أبي شجاع . . وكان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عذراء طفيلة هيفاء تقيد النظر وتزين المحاضر وتحير المناظر تسمى « بالنظام » من العابدات العالمات السائحات الزاهدات شبيخة الحرمين . . فراعينا في صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف الى ذلك من صحبت العمة والوالد فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب احسن القلائد » (٢) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن عربي ج ١ .

(٢) ذخائر الاطلاق في شرح ترجمان الاشواق ص ٤ .

وقد أثبت ذلك « أسسين بلاثيوس » في كتابه « ابن عربي » حيث يقول : « أنه في نفس السنة سنة ٥٩٨ بلغ الغاية من رحلته ، إذ بلغ مكة وسرعان ما ذاع صيته في هذه المدينة المقدسة ، وبدأ العلماء والصالحون يتوددون إليه ، ومن بين هؤلاء الامام الموكل بمقام ابراهيم واسمه « أبو شجاع » الذي انعقدت بينه وبين « ابن عربي » مودة وثيقة ، وكانت لهذا الامام بنت ذات جمال . فأوحت الى ابن عربي بموضوع كتاب من أشهر كتبه هو ترجمان الأشواق . ثم يقول : نراه في سنة ٦١١ هـ لا يزال في مكة عاكفا على عبادته المعتادة في الكعبة ويكتب شرحه على ترجمان الأشواق » (١) .

ولسنا بصدد الدفاع عن « ابن عربي » في قصائده تلك التي أثارت حوله ثائرة الفقهاء والمتشككين ، فان حياة الشيخ الأكبر نفسها تضعه فوق مستوى أى شبهة من الشبهات وتدافع عنه ، والمنهج السلوكي الذي اختاره لنفسه قد جعله زاهدا في كل مقعة من متع الحياة رخصت أو غلت ، وليس من المستساغ أن يقبل هذا السائح الرامي بقصده الى الله أن يتغزل غزلا حسيا في فتاة كان هو في ضيافتها وضيافة أبيها ، فان لم يتناف هذا مع صلاحه وصلاحها فانه يتنافى مع طبيعته كعربي جواد شهم فتى ينتسب الى أرقى أرومة من أرومات العرب مجدا وأبا وشهامة ، وهي أرومة طيبة .

وان هذه الخواطر التي حاكتها أخيلة المهاجمين هي التي جعلته يسارع في تأليف شرح لهذه القصائد الصوفية الغزلية ، التي نحا فيها منحى الرمن الصوفي الذي دأب الصوفية على

(١) ابن عربي ص ٥٧ .

استعماله منذ أن تطور التصوف الى انواق ومواجيد وانطلق الصوفية بعواطفهم نحو الله ، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصرحوا بذلك فرمزوا عن حبهم لله بالغزل الحسى ضنا بأسرارهم وحفاظا على معانيهم ، ولذلك نرى ابن عربى يقول : « وقد شرحنا من ذلك نظما لنا بمكة سميناه ترجمان الأشواق وشرحناه فى كتاب سميناه الذخائر والأعلاق بسبب اعتراض بعض فقهاء حلب علينا ، فى كوننا ذكرنا أن جميع ما نظمناه فى هذا الترجمان انما المراد به معارف الالهية وأمثالها ، فقال : انما فعل ذلك لكونه منسوبا الى الدين ، فما أراد أن ينسب اليه مثل هذا الغزل والتشبيب ، فجزاه الله خيرا لهذه المقالة » فانها حركت دواعينا الى الشرح فانتفع به الناس ، فأبدينا له ولأمثاله صدق ما نوبناه وما ادعينا ، فلما وقف على شرحه تاب الى الله من ذلك ورجع » (١) .

ولكن الدكتور زكى مبارك يتابع دائرة المعارف الاسلامية فى فهمها عن ابن عربى من أنه كان يقصد الغزل الحسى ، وذلك فى كتابه التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ويقول : انه حين أراء أن يوجه هذه القصائد وجهة صوفية ارتكب كثيرا من التعسف ، وهذا القول له خطورته ، فابن عربى مصدق فى قوله ، ووقائع حياته تؤيده يقول الأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى : « ومن البين لكل من له صحبة فى الشعر الصوفى أنه يتعذر كثيرا على دارسه التمييز بين هذا الضرب من الشعر وبين الشعر الغزلى ، هل هذا قيل فى معشوقة من البشر أو منشودة من السموات ؟ حتى أن ابن عربى اضطر الى كتابة شرح لتوضيح الغرض من أشعاره ولإزالة ما علق بالأذهان من أنها قيلت تشبيها بامرأة » (٢) .

(١) ابن عربى ص ٧٥ .

(٢) بين التصوف والأدب لمحمد ابراهيم الجيوشى ص ٨٢ .

ولو صح قول الدكتور زكى مبارك عن ابن عربى لصح إطلاقه على كل شاعر صوفى له شعر غزلى ، ولصح عن رابعة العدوية التى يطلق عليها شهيدة العشق الالهى أن معشوقها انسان فى تلك الأشعار الرائعة التى وقفت أنفاس المحبين حولها لاهثة .

وليس هناك تعسف فى شرح ترجمان الأشواق ولكنها المعانى العميقة والأسرار الالهية التى مازالت تجد صيانتها فى قلم ابن عربى عن الابتذال رغم الشرح . وستظل كذلك فى صون وحفاظ حتى ولو وضع حولها الشارحون ألف شرح وشرح .

ومن كتبه الهامة فى « مكة » الفتوحات المكية الذى يقول عنه الشعرانى : انه بعد أن ألفه وضعه فوق الكعبة عاما كاملا ، ثم بعد ذلك تناوله فوجده بالحالة التى وضعه عليها لم تؤثر فيه شمس ولا أمطار ولا رياح (١) .

ويعتبر تأليف هذا الكتاب صدق لما وصل اليه « ابن عربى » من منزلة روحية عظيمة وكما يقرر هو أن ما ورد فيه كان فيضاً الهيا القاه الله فى روعه فترجم عنه فى هذه الأجزاء الضخمة ذات الستين والخمسمائة فصل .

وكتاب الفتوحات - الذى نرجو أن نتحدث عنه فيما بعد - له أثره الخطير بين الصوفية ويعد من الكتب الرئيسية فى علم التصوف .

٢ - مجيئه الى « مصر » فى سنة ٦٠٣ هـ كان سببا فى إثارة ثائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل ، وهموا بأن يبطشوا به لولا أن قيض الله له من كان سببا فى إنقاذه من هذه الفتنة التى أوشكت أن تعصف به .

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٢ .

وقصة ذلك أنه حين قدم القاهرة نزل في دار بها جماعة من الصوفية في « زقاق القناديل » والتأم شمل هؤلاء حول ذكر الله والتزام عبادته على نحو خاص أدى الى ظهور بعض الخوارق على أيديهم ، وفي ليلة انبعثت من أجسام الذاكرين أنوار مضيئة بددت ظلام الحجرة ورأى « ابن عربى » شخصا يخاطبه بلسان عذب قصيح قائلا : « اعلم أن الخير في الوجود والشر في العدم ، أوجد الانسان بجلوه وجعله وحدانيا في وجوده ، تخلق بأسمائه وصفاته وفنى عنها بمشاهدة ذاته ، فرأى نفسه بنفسه وعاد العدد الى أسه فكان هو ولا أنت » .

وقد فهم « ابن عربى » هذه الاشارات وحاول أن ينظم حولها شعرا يترجم عن معانيها ، ويبدو أن عوالم الصوفية لم يدركوا جلال هذه المعانى فنقلوها عفوا أو تباهايا الى أسماع الفقهاء الذين يغارون على السنة ، ولعل ما كان قد شاع من أشعار ترجمان الأشواق قبل كتابة شرحها قد وصل أيضا الى أسماع هؤلاء قاضيف هذا الى ذاك ، وأوصلوه الى الملك العادل متهمين « ابن عربى » بالكفر والثور وعظائم الأمور ، طالبين منه اهدار دمه حتى يكون عبرة لغيره .

ولكن الغريب ان « ابن عربى » لم يتأثر بذلك ولم يتزعزع ايمانه ، وكان ذلك بسبب توقعه لما يحدث له وتوطينه النفس على الصبر على ذلك . جاء في شذرات الذهب : « وقد أودى الشيخ كثيرا في حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره ، وقد أخبرهم عن نفسه بذلك . وذلك من غرر كراماته . فقد قال في الفتوحات : « كنت نائما في مقام ابراهيم ، وإذا بقاتل من الأرواح يقول لى عن الله : ادخل مقام ابراهيم انه كان أواما حليما ، فعلمت انه لابد أن يبتلىنى بكلام فى عرضى من قوم فأعاملهم بالحلم قال : ويكون أذى كثيرا فانه جاء بحليم بصيغة المبالغة ، ثم وصفه بالأواه ، وهو من يكثر التآوه لما

يشاهد من جلال الله « (١) وقد وطن الشيخ الأكبر نفسه على الصبر لهذا الأذى حتى يكون جديرا بالتخلق بمقام الخليلية .

يقول مؤلف كتاب « ابن عربى » ومن حسن الحظ في هذه المناسبة أن هذه الاتهامات لم تلق أذنا سميعة عند الملك العادل لسياسته الحرة السمحة ، وكانت توصية من جانب الشيخ أبى الحسن البجائى صديق ابن عربى ، كانت هذه التوصية كافية لتفسير مذهب ابن عربى في وحدة الوجود تفسيراً رمزياً فأمر بإطلاق سراحه « (٢) .

ولم تثن هذه المحنة عزيزة « ابن عربى » ولم تعقه عن طريقه . لأنه عرف هذا الطريق وأدرك نهايته وأيقن بسلامته ، واستهان بكل خطورة فيه .

هل التقى ابن عربى بابن الفارض ؟ :

شيء آخر في مصر يعد من الأحداث الهامة في حياة الشيخ الأكبر ذلك هو لقائه بابن الفارض .

كان ابن الفارض معاصراً لابن عربى ، وإن اختلف موطن كل منهما . فقد ولد ابن الفارض في مصر سنة ٥٧٦ هـ ونشأ بها في ظل الدولة الأيوبية ورحل الى مكة وقضى بها خمسة عشر عاماً ، رجع بعدها الى القاهرة حيث مكث بها حتى وافته منيته سنة ٦٣٢ هـ بعد أن بلغ في العلوم الدنية والصوفية مبلغاً كبيراً ، وقد ضمن خلاصة معرفته أشعاره التى سرت مسرى الشمس ، ووضع حولها الشراح كثيراً من الشروح والتعليقات وأطلق عليه من أجلها « سلطان العاشقين » وكان أهم أشعاره قصيدته « نظم السلوك » (٣) .

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) ابن عربى ص ٦٥ .

(٣) راجع عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ١٢٠ ، ١٢٧ .

ولقد أشارت بعض المصادر اشارات طفيفة حول امكان هذا اللقاء ، فقالت : ان محيي الدين بن عربي طلب من ابن الفارض ان يأذن له في شرح تائيته الكبرى فأجاب ابن الفارض : بأن كتابك الفتوحات المكية شرح لها ، ومن هذه المصادر ما نقله المقرئ في نفح الطيب عن « المقرئى » في ترجمته لعمر بن الفارض (١) .

ولكن تفصيلات هذا اللقاء لم يتعرض لها أحد، حتى يمكن معرفة الزمان والمكان وبقية ما دار بين هذين الشيخين من حديث ، مما جعل بعض المهتمين في العصر الحديث بدراستهما يففلون هذه الحادثة اطلاقا ، كما فعل « أسين بلاثيوس » في ترجمته « لابن عربى » فانه برغم تعرضه لبعض التفصيلات الدقيقة لحياته لم يتعرض لذكر واقعة لقائه بابن الفارض ، وان كان قد ذكر عن « ابن الفارض » انه بلغ مرتبة عليا في التصوف والارتفاع في قلوب المسلمين ، وذلك حينما تحدث عن شهرة « ابن عربى » « الذى طبقت شهرته بلاد المشرق كلها ، لا ينافسه في شهرته غير صوفى آخر معاصر له هو عمر بن الفارض الشاعر المصرى الصوفى المشهور » (٢) .

ويجوز أن يقال : ان منهج « أسين بلاثيوس » في ترجمته لابن عربى يعتمد على ابن عربى نفسه في كتبه ، ولا سيما كتاب الفتوحات لأنه يقول في مقدمة كتابه : « حياة الصوفى المرسى ابن عربى وهى موضوع القسم الأول من هذه الدراسة قد استخلصناها مما ورد من نصوص تتعلق بحياته في كتبه خصوصا في كتاب الفتوحات المكية ، ودون أن نهون من شأن المعلومات القليلة التى يقدمها لنا من ترجموا لحياته فاننا نعتقد أن ما قدمه لنا ابن عربى نفسه أكبر أهمية » .

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٧ .

(٢) ابن عربى ص ٨٥ .

و «ابن عربى» لم يتحدث عن هذا اللقاء بينه وبين «ابن الفارض» كما تحدث عن غيره من اللقاءات التى تمت بينه وبين شيوخ كثيرين . وكما أغفل « أسين بلاثيوس » هذه الواقعة انكرها غيره من المستشرقين مثل « نيكلسون » « وماسينيون » يذكر ذلك الدكتور محمد مصطفى حلمى قائلاً : « ومن هنا ذهب المستشرق الانجليزى نيكلسون الى أن ابن الفارض وابن عربى لم يلتقيا قط ، كما ذهب الى مثله المستشرق الفرنسى الأستاذ ماسينيون ، وذلك فى محاضرة القاها بقاعة الجمعية الجغرافية عن ابن الفارض والششتري فقد استبعد أن يكون ابن عربى فى زيارته لمصر قد عرف ابن الفارض ، وإن كان كل منهما قد أحس بوجود صاحبه فى عالم الشعـر والتصوف » (١) .

والدكتور مصطفى حلمى يذكر ذلك بعد قوله : « نحن لا ننكر زيارة ابن عربى لمصر أو المامه بها ، ولكن الذى لا نستطيع التثبت منه هو أن يكون ابن عربى قد التقى حقاً بابن الفارض ونشأت بينهما صلة شخصية تبودلت فيها الآراء الصوفية والأذواق الروحية ، إذ ليس ثمة ما يثبت هذه الصلة اثباتاً قاطعاً » .

ونحن لا يمكننا اضافة شىء جديد الى ذلك ، ولكن يمكن أن نذهب الى رأى الذى يثبت امكانية هذا اللقاء وحدثه ، مستعدين من حرص «ابن عربى» الزائد على لقاء الشيوخ دليلاً قوياً على حدوث هذا اللقاء ، فإن المتتبع لرحلات هذا الشيخ الجليل يرى مدى شغفه بالتعرف الى رجال الوقت من الصوفية ، وفى كل مكان يحل فيه يبحث عن يرى أنهم محل نظر الله فى الأرض . وابن الفارض لم يكن شيخاً مغموراً من شيوخ الصوفية ، ولكنه كان علماً من أعلامهم تشد اليه الرحال من كل مكان ، فليس من المعقول ان تسمح لابن عربى فرصة ثمينة كهذه ولا يغتنمها وهى فرصة وجوده فى القاهرة .

(١) ابن الفارض سلطان الماشقين ص ٩١ .

على أن هذا اللقاء قد لا يكون حدث في القاهرة ، إذ من الجائز حدوثه في مكة ، ونحن نعلم أن ابن الفارض « قضى في ظل الحجاز أكثر أيامه اشراقا بأنوار الفتوح فيما بين سنتي ٦١٣ هـ و ٦٢٨ هـ في أواخرها أو ٦٢٩ هـ في أوائلها » (١) وابن عربي يقينا كان يلم كثيرا بمكة في السنين قبل رحيله نهائيا إلى دمشق سنة ٦٢٠ هـ ، ففي هذه السنوات السبع السابقة على استقراره في دمشق لا يبعد أن يكون قد حدث لقاء بين الشيخين العظيمين ، ولعل ذلك هو الأرجح ، فإن ابن الفارض قبل رحيله إلى الحجاز لم يكن قد ألف بعد « تائيته الكبرى » التي يعتبر أن الفتوحات المكية شرح لها .

أما اغفال « ابن عربي » قصة هذا اللقاء فذلك سر من أسرار الصوفية يظهر في تصرفاتهم الغريبة في بعض الأحيان ، وقد يكون هذا الاغفال متعمدا من جانب « ابن عربي » لأن هناك من الأحاديث التي دارت بينهما ما لا يمكن الإباحة به أو الخوض فيه بين شخصين أحدهما سلطان العارفين والآخر سلطان العاشقين ، وبين العشيق والمعرفة تدق الأسرار وتتوه الأفكار .

إن هذا اللقاء ممكن من غير شك ، وكل ما أمكن أن يسجل منه هو هذا الحوار القصير الذي لا يؤدي إلى هتك سر أو كشف حجاب . هذا الحوار الذي دار حول شرح التائية الكبرى وأن الفتوحات المكية خير شرح لها .

والتائية الكبرى قصيدة طويلة اسمها « نظم السلوك » وكانت ثمرة من ثمرات الوجد والغيبة والدهش وغيرها من الأحوال الصوفية التي كانت تعرض لنفس ناظمها وتعتبر ترجمة ذاتية لحياة الشاعر الروحية (٢) ، وهي بوصفها هذا يمكن أن يصمدق عليها قول

(١) ص ٦١ من الفارض سلطان العاشقين ص ٦١ .

(٢) ص ٢١٣ من الفارض سلطان العاشقين ص ٢١٣ .

ابن الفارض لابن عربي : كتابك الفتوحات المكية شرح لها • لأن الفتوحات تتجه هذا الاتجاه وفيها بيان توضيحي لما كان يمر به الشيخ الأكبر من مراحل روحية وأذواق وجدانية •

منزلته لدى الملوك والأمراء :

ويمكن للمتتبع لحياة هذا الرجل العجيب الذي قضى حياته كلها منهكا جسمه وقواه في رحلات دائبة مستمرة ، أن يدرك مدى الأحداث الهامة في حياته التي لم تخل من حيوية دافقة وحماس علمي بالغ وانتاج خصب وفير في كل المعارف الصوفية التي قوبلت في بعض الأحيان بالانكار والمعارضة ، وقد رأينا لونا منها في اثناء مروره بالقاهرة ، والتي اشتدت فيما بعد حتى حرضت الناس على عدم مطالعة كتبه وقراءتها بل ونادت باحسراقها ، وقد أدى ذلك الى ضياع كثير من مؤلفاته التي لم يبق منها الا اقل القليل •

ولكن حياته مع ذلك كانت مباركة عامرة زاخرة بجلال الأعمال ، وقد بلغ الشيخ الأكبر لدى الملوك والأمراء منزلة عالية ، وصل اليها بالزهد ، وقد ورد عن الصوفية هذه الحكمة الخالدة : ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس • وكان « ابن عربي » كذلك ، فقد وجد الملوك فيه نموذجا فريدا غير ما كانوا يرونه من العلماء والفقهاء ، ففي الوقت الذي يتنافس فيه هؤلاء للتقرب الى أولى الأمر وأصحاب السلطة ، طمعا فيما ينالونه منهم من مغنم مادية أو أدبية ، كان هو ينفرد من ذلك ، وقد وطد نفسه على الفرار من كل قيد يقيد حريته ولو كان هذا القيد من ذهب • يضئف الى هذا عدم تخرج بعض العلماء في اكتساب المال ولو كان على حساب الدين ، في حين ان الشيخ الأكبر كان يعمل للدين حسابه ويرعى له حرمة وقداسته ، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي أفنى حياته على أساس قواعده في الوصول الى حقيقة المعرفة ؟ •

ولنضرب مثلاً على ذلك حتى لا يظن أن هذا الكلام يطلق على علاته : بلغ « ابن عربى » فى نفس الملك الظاهر غازى صاحب مدينة حلب ، منزلة عظيمة ، وأصبحت له كلمة مسموعة لديه فى الشفاعة لأصحاب الحاجات ، وكان الملك يقصده كثيراً فى منزله ، وقد رفع إليه « ابن عربى » فى مجلس واحد مائة وثمانى عشرة حاجة قضاهما الملك جميعها لأصحابها ، ومنها الاستشفاع لشخص كان متهما بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك نفسه ، وكان من جملة بطانته فعفا عنه أكراما لشفاعة محبى الدين بن عربى فيه .

وقد غطى جلال الشيخ الأكبر على كل ما كان للعلماء والفقهاء من نفوذ فى بلاط ذلك السلطان وكان هؤلاء لغلبة الهوى فى نفوسهم « قد تركوا المحجة البيضاء وجنحوا الى التأويلات البعيدة » ليحققوا ما يريدونه الملوك من أغراض لهم فيها هوى محاولين بذلك الاستناد الى نصوص شرعية رغم أن هذه الفتاوى التى يصدرونها ربما لا يعتقدونها ، ولقد صرح الملك « غازى » لابن عربى : بأن الأمور التى تنكرونها على ما أقدمت على منكر منها — رغم علمى بنكرانه — الا بفتوى فقيه وخط يده يشهد على ذلك . وقد بلغ من جراءة أحدهم أن أفتاه بأنه يجوز له أن يفطر فى شهر رمضان ويكفيه أن يصوم أى شهر فى السنة ، فليس رمضان بالذات هو الذى فرض على الناس صومه « (١) » .

ومن العجيب أن يتهم أمثال هؤلاء الفقهاء « ابن عربى » واضرابه ممن هم على الجادة بالزيغ والفساد والزندقة ، ويبرئون أنفسهم من هذه التهم التى هم أولى بها منهم .

وقد مر بنا كيف أن ملك « قونية » كيكافوس الأول خرج

(١) راجع ابن عربى ص ٧٨ وما بعدها .

بنفسه لاستقبال ابن عربى وأكرمه وبألف في أكرامه وأهداه داراً
نفيسة تقدر بمائة ألف درهم^(١) .

أما صاحب حمص « أسد الدين شيركوه » فقد أكرم مقدمه
وأراد أن يستبقيه عنده ورتب له كل يوم مائة درهم^(٢) .

أما الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل الأيوبي
صاحب دمشق ، فقد كان له شرف جوار الشيخ الأكبر فترة
طويلة تقدر بحوالى ثمانمائة عشرين عاماً ، وقد أكرم هذا الملك
« ابن عربى » أكراماً كبيراً ، وكان ينظر إليه نظرة الريد الى
أساتذته ، وقد أذن له « ابن عربى » أن يروى عنه كتبه . نقل
المقرئ عن الفيروزباده : « وقفت على أجازة كتبها للملك
المعظم ، فقال فى آخرها : وأجزته أيضاً أن يروى عنى مصنفاتى
ومن جعلتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف »^(٣) .

وقد حاول ملك « قونية » استقدامه مراراً اليه ، وكان يكتب
اليه يستشيريه فى كثير من الأمور ، وكان « ابن عربى » يرد عليه
بما يراه صالحاً للمسلمين ، ومن ذلك مثلاً هذه الرسالة التى
كتبها ووردت فى الفتوحات : « عليك بمراعاة كل مسلم من حيث
هو مسلم ، وساو بينهم كما سوى الاسلام بينهم فى أعيانهم ،
ولا تقل : هذا ذو سلطان وجاه ومال كبير وهذا صغير وفقير
وحقير ، ولا تحقر صغيراً ولا كبيراً فى نعمته ، واجعل الاسلام
كله كالشخص الواحد ، والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص ،
وكذلك هو الأمر فان الاسلام ما له وجود الا بالمسلمين كما أن

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٣) نفح الطيب ج ٧ ص ١٢٩ .

الاسلام ما له وجود الا بأعضائه وجميع قواه الظاهرة والباطنة» (١) .

ومن هذه الرسالة يبدو مدى حرص « ابن عربى » على مصلحة المسلمين ، كما يبدو منها اخلاص النصيح للملك الذى كان يلجأ اليه مستشيرا فكان يجده دائما عند حسن ظنه ، ويرد عليه بما يعينه على سياسة رعيته واصلاح شأن المسلمين .

ولم يكن « ابن عربى » يرهب الخلفاء والحكام ، لأنه كان مؤيدا بمسئولة الحق ونور المعرفة بل كان الأمر بالعكس ، فقد كانوا هم الذين يرهبونه ويعملون له ألف حساب ، لشخصيته هو أولا ثم لقوة نفوذه بين أتباعه ومريديه ، وما كان « ابن عربى » من الأشخاص المغامرين الذين يفكرون فى أحداث ثورات أو اضطرابات ضد أولى الأمر ، ولكنه كان زاهدا متواضعا مطيعا ، منفذا لأمر الله فى طاعة أولياء الأمور . وهو بما أعطاه الله من بصيرة أصبح لزاما عليه أن يقوم بواجبه الدينى كاملا بما فى ذلك المشاركة فى اسداء النصيح والتوجيه الكريم لمصلحة الاسلام والمسلمين كما رأينا فى رسائله العديدة ونصائحه المختلفة للملوك .

حدث مرة فى بغداد أن كان يسير بين طائفة من تلاميذه ، ومر عليهم الخليفة فى حوكبه ، فأمر « ابن عربى » أتباعه ألا يبدؤوا بتحية الخليفة جريا على العادة التى كانت متبعة ، فانصاعوا لأمره ، حتى حاذاهم الخليفة فبدأهم هو بالسلام فردوا عليه .

وابن عربى لم يكن يريد من ذلك الانتقاص من قدر الخليفة ، ولكنه أراد أن يعيد الى المسلمين تقليدا شرعيا فى التحية تناساه الناس أمام جبروت الخلفاء . ذلك التقليد هو أن يبدأ الصغير الكبير ، والراكب الماشى ، والماشى الجالس بالتحية ، وقد كان

(١) ابن عربى ص ٧٤ .

ال خليفة ممتطيا صهوة جواده وهم راجلون ، فيجب على الخليفة أن يكون هو البادئ بالتحية بناء على هذا الألب العالي الذي وضعه الاسلام .

على أن هذه المنزلة التي لقيها « ابن عربى » فى المشرق لدى الخلفاء ، كان يقابلها بعض التحفظ من ملوك المغرب ، ويمكن تعليل ذلك بأن السلطة فى ذلك الوقت كانت فى يد الموحدين ، وكانوا بصدد تكوين دولتهم فى الأندلس وتوطيدها فى إفريقيا ، ومنشئو الدول عادة يقفون من كل من يظن له نفوذ موقف التحفظ ، لا سيما وهم يدركون أن للدين سطوته ورمبته ، وأن التصوف بخاصة يحمل أصحابه على التضحية والفداء ، وهم لا يريدون إثارة الحمية الصوفية فى النفوس ، حتى لا تتحول مع الزمن الى ثورة عاتية ربما تقضى عليهم وتبدد دولتهم . هذا سبب . وسبب آخر هو أن سلطة الفقهاء فى ذلك الوقت كان لها تأثير مضاد ضد الصوفية ، وهم ما زالوا يحملون لواء الخصومة للتصوف وأنصاره ، وقد استطاعوا بتأثيرهم أن يوغروا صدر السلطان ضد شيخ من شيوخ التصوف هو « أبو مدين » وقد أراد ابن عربى أن يزيل ما ألصق بهذا الشيخ المجاهد من اتهامات زينها له الفقهاء فدارت بينه وبين السلطان « يعقوب المنصور » مناقشة فى شأنه انتهت على غير ما كان يرجو « ابن عربى » فخرج غاضبا من عنده .

على أن ما فقده الشيخ الأكبر من منزلة لدى هؤلاء لم يكن له أدنى تأثير فى نفسه ، وقد عوضه الله عن ذلك بما هو أعز وأرفع لدى جميع ملوك أهل المشرق . حتى اذا ما قضى وجد هؤلاء الملوك أنفسهم ملزمين بأن يتابعوا واجبهم نحوه ، فأولوا مدفنه

عناية فائقة ، وتعهد بذلك الخلفاء المتعاقبون على دمشق وبخاصة
العثمانيون الذين جددوا هذا المزار مرارا . وكان لهم في الشيخ
الأكبر اعتقاد خاص . يذكر الشعراني سببه وهو تنبؤه بسلطان
العثمانيين^(١) . وقد أجريت عليه الأوقاف وأصبح مزارا مشهورا
يقصده الناس من كل مكان . وبنى عليه السلطان سليم خان
مدرسة عظيمة^(٢) .

(١) طبقات الشعراني ج ١ ص ١٦٣ .
(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٤٩ .

أخلاقه

أغنى الشيخ الأكبر حياته في الطريق الصوفي حتى وصل إلى غايته ، ومبنى الطريق الصوفي قائم على الأخلاق ، ولعناية التصوف بها جعلها أساسا ووسيلة وغاية ، والصوفية يحكمون على مراتب بعضهم بما يرونه من أخلاق ، لذلك يقولون : كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه . ويضعون للتصوف تعريفات مختلفة لا تخرج في مجموعها عن التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل .

والشيخ الأكبر رائد عظيم من رواد هذا الطريق الذى نظر إليه المتصوفة وغيرهم نظرة اكبار وأعظام ، وغنى عن القول بأن هذه المنزلة وصل إليها بما كان عليه من استقامة على الجادة وصدق في الطلب وورع كامل بلغ إلى حد لا يمكن أن يصل إليه الا من ندر وأخلاق كريمة حبيت فيه الخاص والعام .

وقد كان لنشأته الأولى في أسرة صالحة تقية إلى جانب أرومته النقية إلى جانب مصاحبته كل من صاحبه التوفيق أثر كبير في تلك النفحات العطرة الكريمة التى تضووع بها هذه الشخصية المحببة .

والشيخ الأكبر حقيق بهذا الوصف الذى وصفه به
« ابن مسدى » أنه كان جميل الجملة والتفصيل . ولكن هناك
مناقب بارزة فى حياته جديرة بالوقوف عندها قليلا .

فمن ذلك زهده الشديد الذى كان مضرب الأمثال ، ذلك
الزهد الذى رفعه فى أعين الناس . والزهد عند الصوفية منازل
وسرجات . أعلاها الزهد فيما سوى الله ، وقد كان زهد الشيخ
الأكبر من هذا النوع الذى جعله يهجر كل نعمة ويترك كل راحة ،
ويحقر كل لذة . ويضحي بكل غال فى سبيل الظفر بأمنيته .

ولقد توفر المال بين يديه فما أمسك منه شيئا ، ورغب
الملوك والسلاطين فى أن يؤمنوا له حياته ويوفروا له كل أسباب
الراحة والنعمة ، ولكنه رغب عن كل ذلك ، وأطلق نفسه من كل
أسر ، وانطلق يحلق فى الأجواء .

ومرت عليه فترة من حياته زهد فيها معايشرة زوجته عملا
بنصيحة شيخه « المغاورى » التى سمعها من أحد تلاميذه والتى
ينهى فيها عن معايشرة النساء . ولم يقبل عليها بعد ذلك الا امتثالا
لسنة النبى صلى الله عليه وسلم فى أمره باعطاء المرأة حقها من
المعايشرة الحسنة . فهو يقول : « كنت من أكره خلق الله تعالى فى
النساء فى أول دخولى الى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحو من
ثمانى عشرة سنة الى أن شهدت هذا المقام ، وكان تقدم عندي خوف
المقت لذلك » ويقصد بالمقام مقام امتثاله لسنة النبى صلى الله
عليه وسلم ودعوته الى الزواج ومعايشرة الزوجة . وخاف على
نفسه المقت لأنه خالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك .
والزهد رأس الفضائل لا سيما اذ كان عن قدرة .

ومن صفات « ابن عربى » الجديرة بالتسجيل كرمه الذى
كان مضرب الأمثال ، وهو كرم متوارث من أسرته الطائفة المشهورة
زكاه دينه وورعه وخلقه وتصوفه . والتصوف لا يمقت شيئا كما

يمقت البخل ، فالله لم يحبب في شيء بعد الايمان كتحيبيه في الاتفاق والنسب ، ولم ينفر بعد الشرك كما تنفر من البخل والشح لأنهما من أسباب سوء الخلق .

وكرم « ابن عربي » ارتفع الى درجة الايثار ، وهو أرفع منازل الجود ، « أمر له ملك الروم في (قونية) مرة بدار تساوي مائة ألف درهم فلما نزلها وأقام بها ، مز به في بعض الأيام سائل ، فقال له : شيء لله ، فقال : مالي غير هذه الدار ، خذها لك ، فتسلمها السائل وصارت له » (١) .

وكان ينفق عطاءه اليومي جميعه على الفقراء والمساكين وكان كثيرا قدر بمائة وثلاثين درهما .

ولقد أدرك « ابن عربي » المعنى الصوفي للصدقة ، فانها ليست مجرد اعطاء للفقير ، ولكن لها معنى أبعد من ذلك ، تعلمه من شيخه « يوسف الأسستجي » الذي يروي عنه هذه القصة : « وقفت أنا وعبد صالح معي يقال له : يوسف الأسستجي على سائل يقول : من يعطي شيئا لوجه الله ، ففتح الرجل صرة دراهم كانت معه ، وجعل ينتقى له من بين الدراهم قطعة صغيرة يدفعها للسائل ، فوجد ثمن درهم ، فأعطاء اياه ، وهذا العبد ينظر اليه فقال لي : يا فلان ، تدري على ما يفتش المعطي ؟ قلت : لا ، قال : على قدره عند الله . لأنه أعطى السائل لوجه الله ، فعلى قدر ما أعطى لوجهه ذلك قيمته عند ربه » (٢) .

ويصل الكرم بابن عربي الى درجة التصديق بثواب ما يعمل من طاعة ، رغبة في جزاء السيئة بالحسنة ، وهذا منتهى المروءة ، فان مقابلة الإحسان بالإحسان أمر طبيعي أما مقابلة الإساءة بالإحسان فذلك أمر لا يكون الا من سوابق الهمم ، ولا يدل الا على عظم اتساع القلب والارتفاع فوق مستوى البشرية .

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) ابن عربي ص ٢٦ .

جاء في نفع الطيب : « قال الشيخ محيي الدين ٠٠ : أنه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت في بأمور عظيمة ، فقلت : هذه قد جعلها الله سبباً لخير ووصل إلى فلاكافئتها ، وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها وعنها ، ففعلت ذلك ، فلما كان الموسم استقل على رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده فقال : رأيت « بالينبع » في الليلة التي بت فيها كأن الآفا من الابل أوقارها المسك والعنبر والجوهر ، فعجبت من كثرت ثم سألت : لمن هو ؟ فقل : هو لحمد بن عربي يهديه إلى فلانة - وسمى تلك المرأة - ثم قال : وهذا بعض ما تستحق . »

« قال سيدي ابن عربي : فلما سمعت هذه الرؤيا واسم تلك المرأة - ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم منى ذلك - علمت أنه تعسيف من جانب الحق ، وفهمت من قوله : أن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ، فقصدت المرأة ، وقلت : اصدقيني ، وذكر ما كان من ذلك ، فقالت : كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف ، فشكرت الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت في نفسي : اللهم اني أشهدك أني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما ، قال : فعلت أن الذي وصل منى إليها بعض ما تستحق فأنها سبقت بالجميل والفضل للمتقدم » (١) . »

فهذه القصة تفهمنا مسارعة ابن عربي إلى إهداء ثواب أعماله إلى امرأة سبق إلى ظنه - بناء على ما أبلغه - أنها أساءت إليه ، فأراد أن يكافئها على ذلك ، ولم كان ما يهديه إليها شيئاً مادياً لكان جديراً بالفضل ، فما بالك حين تعلم أن الهدية ثواب طاعة وهو أحرص ما يكون الإنسان عليه ؟ فلن يدل ذلك إلا على نهاية المروءة

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٢٧ .

والكرم والايثار يقول المقرئ : « وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة
فما ادخر منها شيئا ، وقيل ان صاحب حمص رتب له كل يوم
مائة درهم وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهما فساكن يتصدق
بالجميع » (١) .

والقصة المتقدمة تسلمنا الى فهم آخر في اخلاق « ابن عربي »
هو الاحسان الى من اساء والعفو الجميل الصادر عن قلب صاف
خال من أى ذرة من ذرات الحقد أو الغل أو الكراهية . وهذا أوفى
درجات الحلم .

وقد وطن الشيخ نفسه منذ ان نذرهما للطريق الصوفي ان يكون
مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، محتملا للأذى ومعينا للاخوان ، وتلك
ثمره من ثمار هذا الطريق وتوجيهات أئمة التصوف ، وان يكون
الصوفي صوفيا الا اذا كان ذا قلب واسع يملؤه الصفيح وتثيره
الرحمة ، والصوفي في ذلك ينظر الى نبيه الكريم الذي وصفه الله
عز وجل بهذه الصفات العالوية « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٢) « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٣)
ويحدث هو عن نفسه قائلا : « انما انا رحمة مهداة » .

جاء في شذرات الذهب : « مما وقع له ان رجلا من دمشقي
فرض على نفسه ان يلعبه كل يوم عشر مرات ، فمات ، وحضر
ابن عربي جنازته ثم رجع وجلس في بيته وتوجه للقبلة . فلما جاء
وقت الغداء أحضر اليه قلم يأكل ، ولم يزل على حاله الى بعد
العشاء ، فالتفت مسرورا ، وطلب العشاء وأكل ، فقيل له في ذلك .
فقال : التزمت مع الله انى لا أكل ولا اشرب حتى يغفر لهذا الذي

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) التوبة ١٢٨ .

(٣) الانبياء ١٠٧ .

يلعننى ، وذكرت له سبعين الف لا اله الا الله فغفر له « (١) ثم يقول ابن العماد : « وقد أودى الشيخ كثيرا في حياته وبعد مماته مما لم يقع نظيره لغيره ، وقد أخبر هو عن نفسه بذلك ، وذلك من غر كراماته » وقد سبق الإشارة الى ذلك الاخبار وتعقيبه عليه بقوله : « فعلمت أنه لا بد أن يبتلىنى الله بكلام في عرضى من قوم فأعاملهم بالجلم » (١) .

فذا وشخصية الشيخ الأكبر صفحة مشرقة بكل ما يملأ النفوس أجلا وأعظاما ، وفي كل ناحية من نواحي العظمة الخلفية تجد له قسما راسخة وأثرا مشهودا ، مما يطول بيانه ويعجز عن اللوفاء به ، وقد صدق ابن العماد في قوله : « من تأمل سيرة ابن عربى وأخلاقه الحسنة وانسلاخه عن حظوظ نفسه وترك العصبية حمله ذلك على محبته واعتقاده » (٢) .

ومن أقوال ابن عربى الماثورة التى تدل على سعة قلبه وجميل عفوهِ : « شرط الكامل الإحسان الى أعدائه وهم لا يشعرون تخلقا بأخلاق الله ، فانه دائم الإحسان الى من سماهم أعداءه مع جهل الأعداء به » (٣) .

و « ابن عربى » رغم الكرامات التى كانت تحدث على يديه ، فانه لم يكن يعبا بذلك أو يعلق عليه أهمية تذكر ، وهذا يضيف الى أخلاقه صفة أخرى ، هى صفة التسامى الى أعلى مدى يمكن أن تصل اليه روح ، وكثيرا ما كان ينصح أتباعه ومريديه ألا يتطلعوا الى شيء من هذه الخوارق أو الكرامات ، لأنها كثيرا ماتقف عقبة فى طريق وصول المرید الى الكمال ، فان حدث شيء من ذلك عفوا

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٢ .

(٢) . (٣) المرجع السابق ص ١٩٧ .

فعلية أيضا الا يلتفت اليه بل عليه ان يستغفر منه لانه امتحان في
قالب اكرام .

والكرامة الحقيقية في نظر « ابن عربي » وأمثاله هي الاستقامة
على الجادة ، والمضى قدما الى الأمام دون الالتفات الى أى عارض
يعترض الطريق ، ومن نصائح في ذلك : « لا تطلب من الله في
خلوتك سواه ، ولا تعلق الهمة بغيره ، ولو عرض عليك كل ما في
الكون فخذ به بأدب ولا تقف عنده ، وصمم على طلبك فانه يبتليك ،
ومهما وقفت مع شيء فاتك ، وإذا حصلت له لم يفتك شيء » وقد
عبر عن هذا المعنى صوفي آخر من تلاميذ الشاذلي هو ابن عطاء الله
السكندري في حكمة من حكمه الرائعة بقوله : « ما أرادت همة
سالك أن تقف عندما كشف لها الا وناذته هواتف الحقيقة : الذي
تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات الا وناذته حقائقها : انما
نحن فتنة فلا تكفر » (١) .

(١) شرح الرندي على حكم ابن عطاء الله السكندري .

ابن عربي الأديب

بيئة الأندلس والأديب : سبق الإشارة الى طبيعة الأندلس الجميلة المحببة الى النفوس فقد أحاطت بها المياه من أعظم جوانبها ، وتمتعت بتربة خصبة صالحة لما نما فيها من أشجار باسقة وأزهار متفتحة وثمار يانعة ، وتعددت فيها الأنهار التي من أهمها النهر الكبير ونهر تاجة ، وذلك الى جانب ما يوجد فيها من جبال متدرجة تثمر على سفوحها مختلف الزروع وشتى الثمار ، وقد تغنى كثير من الشعراء والأدباء بمفاتن الأندلس ووصفوا جمالها الأخاذ الساحر ، وتفننوا في عرض هذه الصور في منظومات رقيقة وتعبيرات أنيقة .

وقد كانت هذه البيئة مهدا صالحا لإخراج مئات الشعراء والأدباء الذين صقلت مواهبهم تلك المناظر الفاتنة وأبرزت استعداداتهم هذه المشاهدات البارعة :

استعداد ابن عربي : وكان هذا كفيلا بتهيئة الفرصة لظهور موهبة كموهبة « ابن عربي » الذي هيأته أرومته العربية الأصيلة الشاعرة فزودته بالاحساس المرفف والانفعال الصادق ، والتجاوب مع كل ما يقع تحت سمعه وبصره من فن مطبوع ومصنوع .

والتقى ابن عريى فى صباه بطائفة من العلماء الأجلاء «الفنانيين»
الذين يحبون الأدب ويتذوقونه ويقولونه • فاستأذنه فى القراءات
« أبو القاسم الشسرراط » كان بصيرا باللغة وأدائها وله حظ من
قرض الشعر • واستأذنه « أبو محمد عبد الحق الأشبيللى » كان
أديبا شاعرا ومن شعره :

ان فى الموت والمعساة لشقلا

لأولى السدين والنهى وبلاغنا

فاغتتم خططين قبيل المنايا

صحة الجسم يا أخى والفراغا

وغيرهما من أسائذته كان له ذلك الحظ من الأدب ، وشيوخه
فى التصوف كان أغلبهم أدباء فنانيين لهم الباع الطويل فى فنون
النظم والنثر ، ومن بينهم « المارقللى وأبو مدين » وكلاهما له أدب
جيد رفيع •

كل ذلك كان له أثره فى صقل موهبته الأدبية واثماء استعداده
الفنى مما جعله شاعرا مجيدا • يضاف إلى ذلك أقبالة على قراءة
كثير من كتب الأدب ونقده والانتفاع بها انتفاعا كبيرا ، وهو يحدث
فى مقدمة كتابه « محاضرة الأبرار » عن كثير من الكتب التى قرأها ،
ومن بينها فى فن الأدب الكتب الآتية : الأمانى لأبى المعالى البغدادى
نزىل قرطبة ، وكتاب ربحانة العاشق لأبى القاسم المسور ، وكتاب
روضة الأنس لأبى زيد السهلى ، وكتاب الكامل للمبرد ، وزهرة
الأدب للحضرى ، والمحاسن والأضداد الجاحظ ، ومعاناة العقل
للحلوى ، والحماسة لأبى تمام ، والحماسة الحلوية وغيرها •

وهذا الاستعداد هو الذى كفل له أن يتولى كتابة الانشاء فى
ديوان « أشبيلية » ولا يتولى هذا المنصب إلا من كانت لديه
الموهبة لذلك •

وقد كان ابن عربي منذ نشأته ميالا الى الأدب ، وكان يشارك في مجالسه وله دراية كاملة بفن القول يشهد لذلك كثرة ما اثر عنه من انتاج أدبي رائع في فن النظم والنثر .

اعجابه بالشعر الجيد ومشاركته في مجالس الأدب : ولقد كان يعجبه بيت من الشعر فينظم على منواله ، من ذلك مثلا ما يرويهِ الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل : أنشد بعض الصوفية ابن عربي بيتا مفردا فأمجب به ، فعمل أبياتا وضمناها هذا البيت وهو الرابع من القطعة الآتية :

قف بالطلول الدارسات بلطع
واندب احبتنا بذاك البلقع
قف بالديار وناجها متعجبا
منها بحسن تطف وتفجع
عهدي بمثلك عند بانك قاطعا
ثمر الخسود وورد روض أيتع
« كل الذي يرجو نوالك امطروا
ما كان برقك خليسا الا معي »
قالت : نعم قد كان ذاك الملقى
في ظل افئسانى بذاك الموضع (١)

« وابن عربي » يتمتع بملكة نقد صافية تعينه على تمييز الجيد من الكلام ، وكتابه محاضرة الأبرار خير نموذج لذلك نقتطف من زهراته ما يأتي :

يقول ابن عربي : مما جاء في الجود قول الشاعر :

(١) مجلة منير الإسلام عند ربيع الأول - ١٣٨٦ هـ .

فتى عاهد الرحمن فى بذل ماله
فلست تراه الدهر الا على العهد
فتى قصرت اماله عن فعاله
وليس على الحر الكريم سوى الجهد

ويعلق على ذلك بقوله : هذا المديح اقرب للديانة من الكرم .
فان عطاءه انما هو من اجل الوفاء بعهده مع الله ، حتى لا يكون
من الذين ينقضون عهد الله ، والكريم سجيته الكرم ، فلا يحتاج الى
القسم عليه الا لعله نفسه ، فما وفى هذا الشاعر مدح هذا فى الكرم
ما تصور له فى خاطره . فهذا اللفظ دون ما فى القصد .

ومن جيد الشعر ما قال القائل :
لئن ساءنى ان تلتنى ياساءة
لقد سررنى الى خطرت ببالكا
ويعلق : واحسن منه لو قال ما قلنا :
لئن سررنى ان تلتنى بمساءة
فما كان الا ان خطرت ببالكا
لان الاول قد اقر بانه اساء ثم اعتذر .

ومن احسن الشعر ما قال الآخر فى باب الشكوى :
فالليل ان وصلت كالليل ان هجرت
اشكو من الطول ما اشكو من القصر
ويعلق : احسن منه ما قلنا :
شغلى بها وصلت بالليل او هجرت
فما ابالى اطال الليل ام قصرا .

فان الأول شغله بطول الليل وقصره من أجلها • فهو فاقد لها
في زمن الاشتغال بغيرها والثاني شغله بها ومن سواها تبع (١) •
وهذا الكتاب غاص بمثل ذلك وغيره من ألوان القطوف •

ومن أمثلة مشاركته في مجالس الأدب ما يحكيه المقرئ نقلا عن
العماد بن النحاس : « أنه كان في سقح جبل قاسيون على مستشرف ،
وعنده الشيخ محيي الدين والفيت والسحاب عليهم ، ودمشق ليس
عليها شيء ، قال فقلت للشيخ : أما ترى هذه الحال ؟ فقال : كنت
بمراكش وعندى ابن خروف الشاعر يعنى أبا الحسن على بن محمد
القرطبي القيذاق ، وقد اتفق الحال مثل هذه ، فقلت له مثل هذه
المقالة ، فأنشدنى :

يطوف السحاب بمراكش

طواف الحجيج بيت الحرم

يروم نزولا فلا يستطيع

لسفك السماء وهتك الحرم (٢)

مأثوراته الأدبية :

ومأثورات « ابن عربى » الأدبية كثيرة ، في مقدمتها دواوين
شعره ، ويذكر منها « بروكلمان » الديوان الأكبر - وديوان
الأشواق وله اسم آخر هو « الهجاء الأجد على ترتيب حروف
الأبجد) وديوان المرتجلات ، والقصيدة الثائية ، وقصيدة في
المناسك ، وترجمان الأشواق وشرحه عليه المسمى : بذخائر الأعلام
في شرح ترجمان الأشواق ، وغير ذلك من الكتب • ومن عيون

(١) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ٤٤ •

(٢) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠٦ •

أثاره الأدبية كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، وهو كتاب نفيس جمع « ضسرويا من الآداب وفنوننا من المواعظ والأمثال والحكايات النادرة ، والأخبار السائرة ، وسير الأولين من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والأمم وأخبار ملوك العرب والعجم ومكارم الأخلاق ٠٠ » (١) وفيه يقول : محاضرة الأبرار خير كتاب ، لب الباب ونزهة الألباب .

نماذج من شعره : وشعر « ابن عربي » يدور أغلبه حول المعانى الصوفية ، وإن كان بعض ما فيه من قصائد تدور حول النواحي الاجتماعية كهذين البيتين اللذين وردا في اجابة سؤال سألته بعض أصحابه له : كيف حالك مع أهلك ؟ فأجاب :

إذا رأى أهل بيتي الكيس مبتلياً

تبسمت ودنت منى تمازحني

وإن رآته خليلاً من دراهمه

تكرهت واثنت غنى ثنائتي

وهي قضية اجتماعية نراها سائدة في مختلف المجتمعات فقد أجابه السائل : كلنا ذلك الرجل .

وبالرغم من زهد « ابن عربي » إلا أنه رأى حب المال سائداً كما رأى أثره في مختلف مناحي الحياة بل هو عصبها ، ولكن يجب ألا يكون شاغلاً عن الله فهو ينصح بأن يكون الإنسان غنياً بالله لا بالمال : ...

بالمال يتقاد كل صعب من عالم الأرض والسماء

يحسب به عالم حجاباً لم يعرفوا لذة العطاء

(١) محاضرة الأبرار (القلمة) .

لولا الذى فى النفوس منه لم يجب الله فى الدعاء
لا تحسب المال ما تراه من عسجد مشرق الضياء
بل هبوا ما كنت يا بنى به غنيا عن السواء
فكن برب العباد غنيا وعامل الخلق بالوفاء

ومن القضايا الاجتماعية البارزة فى كل عصر هى أن يتولى
بعض الأمور من ليس أهلا لها ، وأن يرتفع الحقير ويتضع العظيم ،
وهذه سنة الكون : -

قد ثاب غلماتنا علينا فما لنا فى الوجود قدر
اذنابتنا صيرت رعوسا ما لى على ماأراه صير
هذا هو الدهر يا خليلي فمن يقاسيه فهو قهر
وله فى الفخر قصائد مر علينا طرف منها •

واين عربى كشاعر مطبوع نشأ فى بيئة الأندلس المزهرة
لا ينسى الاعجاب بالطبيعة ، وما انشد فيها من شعر كما يصوغ
هو فى ذلك • فمما أعجبم وضيعته كتابه محاضرة الأبرار ، قول
أبى على ابن شبل فى وصف الربيع : -

عرائس الأرض تجلى فى غلائلها
وفى حلى عليها صاغها الريم
تسكن فى حل الأنواء مذهبية
فى كل حاشية من نسجها علم
من من الاقصوان الغض زينه
حمر اليواقيت فى المنثور ينتظم
كائما بالسمااء الأرض شامته
تيكى السمااء وثغر الأرض يتقسم

وأما قول ابن عربي فهو :

أما ترى الروضة الغناء تضحك إذ
جسدت على الأرض بالأزهار أنواء
تبسم الأرض إذ تبكى السماء فهل
بين السماء وبين الأرض شحفاء
لا والذي بضروب الزهر اضحكها
ما ثم شحفاء لكن ثم أشياء
إن السماء تقول الزهر من زهرى
والأرض تأبى الذى قالته والماء
وابن عربي زاد على ابن شبل جمال التعليل *

المعاني الصوفية في شعره :

ولكنه في شعره شغل بالتصوف كما شغفل به في غيره من
الكتب ، ولذلك حفل إنتاجه بهذه المعاني التي دارت حول الشوق
والمحبة والانس والفناء والبقاء وفنون المعرفة التي كشف له عنها
أو تذوقها ، وغير ذلك من المصطلحات التي حفلت بها كتب
التصوف *

وقد نحا في شعره منحى الرمز كغيره من الصوفية لأنه ضمن
بأسراره أن تنتهك ، وتلك عادة الصوفية في التعبير عن أدواقهم .
ومن هذا اللون الرمزي قوله في محاضرة الأبرار : -

طلع البدر في دجا الشعر	وسقى الورد نرجس الخفر
غادة تاهت الحسان بها	وزها نورها على القمصر
هي أسنى من المهابة سنا	صورة لا تقاس بالصور
قلك النور دون أخصصها	تأجها خارج عن الأكر

ان سرت في الضمير يجرحها ذلك الوهم كيف بالبصر ؟
 لعبسة ذكرنا يذوبها لطف من مسارح النظر .
 ومن ذلك قوله في ترجمان الاشواق :

غادروني بالاثيل والنقا	اسكب الدمع واشكو الحرقا
بابي من ذبت فيه كمدا	بابي من مت منه فرقا
حمرة الخجلة في وجنته	وضح الصبح يناغي الشفقا
قوض الصبر فطنب الأسى	وانا ما بين هذين لقي
من لبثي من لوجدى دلى	من لحزنى من لصب عشقا ؟
كلما ضمنت تياريح الهوى	فضح الدمع الهوى والارقا
فاذا قلت : هبوا لى نظرة	قيل : ما تمنع الا شفقا
ما عسى تغنيك منهم نظرة	بى الا ملح برق برق
لست انسى اذ حدا الحادى بهم	يطلب البين ويغى الأبرقا
نعقت اغربة البين بهم	لا رعى الله غرابا نعقا
ما غراب البين الا جمل	سار بالأحباب نصا عنقا

ولا ينكر منكر رقة هذه الأبيات وعذوبتها ولطف معانيها ، ولو أنها انصرفت الى القول الحسى لصورت كل ما يمكن تصويره من ألم البعد والفراق الى جانب التحسر على جمال المحبوب الذى اضطبغت وجنته بحمرة الخجل ، ويود لو يفديه بروحه وبأبيه ، الى غير ذلك من معانى الحب واقاعيله في الأرواح والقلوب ، ولقد عرض ذلك في صور تغذيها العاطفة ويقويها الخيال ، فهو قد ذاب من ألم الفراق ، وهو قد صور الصبر خيمة قوضت ، وصور الأسى مقيما ، وجعل الدمع فاضحا هواء ، ونظرة المحبوب

ما هي الا برق يبرق ، وحمرة السجبل في الوجنة البيضاء ما هي
الا اجتماع الشفق ببياض الصبح .

ولكنها منصرفه الى المعاني الروحية التي يوضحها الأستاذ
عبد العزيز سيد الأهل بقوله :

« وابن عربى يشير الى الروحانيات بالمفادين والمسافرين ،
وحزنه وكمده ودمعه وخوفه كل ذلك من مفارقة الروحانيات
اللطيفة لجسده الثقيل ، وتركها له مرتها بهيكله مقيدا فيه ،
وهو يستغيث بالروح الكلى ليظل قلبه متصلا بالتنزلات الالهية
التي تبعته وتحببه والاشارة بمعالم الجمال الى التجلى على القلب
ووقوع الاستحياء فيه من هية التجلى ، وليس الصبر والأسى
الا لفحات من الشوق تصيب القلب فلا يحتملها الا بما يعين ،
وهو كلما حاول القيام فى مقام الكتمان الجاء الشوق الى البوح
والاعلان ، واذا لم ينطق به لسانه نطقت جفونه ، واذا تمنى نظرة
منع منها . وهو يحسب أنه منع قهرا ، ولكنه اشفاق به ، واذا
أرخت الحجب بين السبحات وبين الخلق فرحة بهم واشفاقا
عليهم ، ولو رفعت هذه الحجب ، وكشفت هذه الستور لاحت
سبحات وجهه » .

« والنظرة الواحدة لو تمكن الانسان منها مطغية تثير النفس
الى نظرة اخرى بعدها ، ومثلها فى فعلها بالقلب مثل فعل ماء
البحر بالظمان كلما شرب ازداد عطشا . ولم يتسكن الشوق
الروحانيات التى جالسته فى الله تعالى ثم عرجت اليه شاهدة
بفعله وجهه ودأبه فى العبادة والطاعة ، وكان عروجه الى الأبرق
اشارة الى المشهود الذاتى ، واما الاشارة بالبرق فللنور الذى
ينسكب خاطفا ثم يسرع زائلا عن الحضرة والمكان .

« والتكنية بالأغربة عن الأمور التي خلفته عن العروج مع هذه الروحانيات وتركته مقيما في حبس الجسد لا يسمو الى مقام العبودية التي هي غاية السمو والارتقاء ، وليست مراكب هذا السمو الا الهمم التي أعدت للوصول ، فمن بذلها وركب نجائبها سارت به الى المكانة التي تنعدم فيها الأسماء وتضمحل الرسوم وتفيض النعم والتجليات من الحى القيوم » (١) .

ولقد دعا ابن عربى السامعين والقارئین الا يقفوا عند حدود ظاهر الألفاظ بل عليهم ان يتعمقوا في فهم مضمونها وأسرارها حتى يدركوا ما فيها من جمال وأذواق وهو يقول في ذلك : -

كل ما أنكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهمها
منه أسرار وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السما
قاصرف الخاطر عن ظاهرها وأطلب الباطن حتى تعلمها .

ولقد صاغ ابن عربى في مختلف معانى الحب ، فمن ذلك قوله في النحول : -

يسيرنى حبك معقولا بحكمه وكنت محسوسا
لطفك حتى لا يرانى الهوى قلم يجد عندى تعريسا (٢)

ومن قوله في اتحاد المحب في الهوى وهو من المعانى الدقيقة : -
ان الهوى ما انا للحب حامله

والحكم للحب في الاشخاص ليس لنا

مثل الصافات لدى قوم أشاعرة

فلا الهوى هو غيرى لا ولا هو انا

(١) منبر الاسلام مند جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ .

(٢) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ١٥٠ .

ان الهوى وانا بالعين متحصن
 فان أمت فيه وجدا أو أعش فبتنا
 لولا الجمال الذى بالحس كلفنا
 لم يهلك الوجد قلب الحس والبدنا
 ان « النظام » لتدري ما أقوه به
 وقد أشورت اليها مرة : يعنى « (١) »
 وله في معنى معاتبة القلب والبصر .
 تقول عيني لقلبي : ان فكرك قد
 رمى الجفون بدمع الوجد والسهل
 فقال قلبي لطرفي : لا تقول كذا
 بل انت عرضتني للفكر بالنظر
 لولا الجمال الذى القت تواظركم
 هواد في خلدي لم تبيل بالفكر
 فاعتب للقلب جود من معاتبة
 وانما العتب في التحقيق للبصر
 وها انا حكم بالعدل بينهما
 لعلمنا بالذى فيه من الخير (١)
 ولابن عربي قريحة شعرية تعينه على الارتجال ، فقد حدثوا انه
 قال مرة هذا البيت : —
 يا من يراني ولا اراه
 كم ذا اراه ولا يراني

(١) محاضرات الأبرار ج ٢ ص ١٥٠ .

فأنكر عليه أحد تلامذته ذلك وقال له : كيف تقول : أنك تراء
ولا يراك ؟ فأنشد على الفور مرتجلا :

يا من يـراني مجـرما ولا أراه أخـذا
كم ذا أراه منعمـا ولا يـراني لائـذا .
شعره في التصوف العملي : -

وقد نظم « ابن عربي » في جميع فنون التصوف ، ومن
بين ذلك ما نظمه في الدعوة الى الأخلاق والزهد وإيثار الآخرة على
الأولى والتشوق الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أمثلة ذلك
قوله يرغب في فعل الخير : -

لا تـسـدمن على خـير تجـود به
وان اغاظك من تعطيـه واقـترفا
فانه يرزق من يعطيـه نعمـته
سواء اكرها كـفرا او اعـترفا
ويدعو الى الاخلاص في العمل والبعد عن الرياء قائلا : -

ان كنت لي اكـسـون لك ما انت لي ما انا لك
فاصـبغ الي قولي تجـد صـبـحة ما قد قلت لك
ولتـلتـزم طـريقتي واجهـد وخلص عمـلك
تـلـل بما جئت به من كل خـير امـلك

وكتب الى صاحب له ببلاد الروم اسمه « اسحاق بن محمد
من اصحاب السلطان ممن تخدمه الدولة وتظهر به السنة : -

اسحاق فاسمع لوعظ من اخي ثقة
ولا يغرنك تقريب السـلاطين

ان الملوك قد استغنوا بملكهم
 عننا وعمنا بأيديهم من الدين
 فاستغن بالله عن ملك الملوك وعن
 سؤال من هو مسكين ابن مسكين
 فانه يكفيك يا عيني ويا وادي
 شر الملوك وأشرار الشياطين
 ومن شعره الذي يدل على التأمل والنظرة الصائبة قوله عن
 الموت : -

شباب فوداي وشباب الأمل
 ومضى العمر وجاء الأجل
 عسكر الموت لنا منتظر
 فاذا سـرنا اليهم رحلوا
 ليت شعري ليت شعري هل سـروا
 اننى بعـدهم متـقـل ؟
 في فتـون اللهـو أفنى طـربـا
 غافلا عما له انتـقـل

وله في معنى المحاسبة وإضافة الأعمال الى الله تعالى ،
 اذ لا فاعل الا هو ورد في محاضرة الأبرار :

وحاسـبـيـهم بما فعلوا	وما فعلوا الذى فعلوا
وتطلبهم بما عملوا	وأنت خلقت ما عملوا
فهل تتجيبهم حجج ؟	وهل يزكولهم عمل ؟
لئن اخـبـرنا بما عملوا	فأعظم منه ما جهلوا ..

وهو ينظر الى قوله تعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله وقوله : « والله خلقكم وما تعملون » وهو يمتدح المصطفى ولكنه لا يجرى على قاعدة المدح التقليدي ، بل يتجه اتجاها صوفيا ينظر فيه الى اثر الرسول في نفسه ، وإلى رحمته التي شملته لأنه من المؤمنين وقد جعل الله الرسول بالمؤمنين رءوفا رحيفا ويقول في ذلك : ..

مدحت المصطفى فمدحت نفسي
ولى قسم وما جاوزت قسمي
فاعممالي تردد على منه
ولو أرمى فعينى منه أرمى
وقد عصم الاله به وجسودي
فان أرمى بسهم ليس يصمى
وهذى رحمة منه توالى
لدى بها يعود على سهمي
وظنى لم يزل ظنا جميلا
فان الظن منه عين علمي

وهو ينظر الى النبي المصطفى نظرة عظيمة تزكيا وراثته له ، ودليله في هذه الوراثة اتباعه شريعته التي جاء بها ، ويقارن بينه وبين نبي الله موسى عليهما السلام ، ويبين أفضلية محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن محمدا أسرى وعرج به أما موسى فقد كلم فقط .

ورثت الهاشمي أخا قریش
بأوضح ما يكون من الدليل

ابايعه على الاسلام كشفا
 وايمانا بالحق بالرعيل
 اقوم به وعنه اليه حتى
 ابينه لابناء السبيل
 سرى في النور حتى كان انى
 من القوسيين في ظل ظليل
 وشرف بالكلام اخوه موسى
 على كتب وذلك بالمسـيل
 واين العرش من واد يقـاع
 كما اين الكليم من الخليل ؟
 ويتشوق ابن عربى الى الكعبة والى الروضة الشريفة .
 فيصوغ فى ذلك دررا غوالى تجمع بين الشوق والتكريم لصاحب
 الرسالة صلى الله عليه وسلم فيقول :
 يا حبيذا المسـجد من مسـجد
 وحبيذا الروضة من مشـهد
 وحبيذا طيبة من بلدة
 فيها ضمير المصطفى احمد
 صلى عليه الله من سيد
 لولاه لم نفلح ولم نهتـد
 قد قرن الله به ذكره
 فى كل يوم فاعتبر ترشـد
 عشر خفيات وعشر اذا
 اعلن بالتائين فى المسـجد

فهذه عشرون مقرونة

بأفضل الذكر الى الموعود

وتشوق ابن عربي الى الكعبة تغذية الأسرار الروحية
التعبدية ، فتلهب ذلك الشوق وتحببه ، فلا ينطفىء حتى بمشاهدة
الكعبة وطوافه حولها ، وهو يقول في ذلك :

انى الى الكعبة الغراء مشتاق

فيها لعاشقها في السر أعلاق

اذا تذكرت أسرارى ومشهدا

فيها تحركنى للبين أشواق

الله يعلم انى لست أذكرها

الا وعندى لذاك الذكر أحراق

فالروح تائهة والنفس والهة

والقلب محترق والدمع مهراق •

ويدعو ابن عربي الى اكتساب الحلال في الرزق على طريقته في
تفسير المعانى تفسيراً صوفياً دقيقاً ، يشير الى وجوب أدراك
الأسرار الالهية في كل شيء فيقول :

في شهوة البطن سر ليس يعلمه

الا الذى شاهد السرزاق رزاقا

لولا السقاء ولولا سر حكمة

ما لاح فسرع ولا عاينت أعراقا

فكل حلالا اذا كان المحلل مو

جودا بقلبك ومهابا وخلاقا

وابن عربى يعزل دوران الزمان واختلاف الفصول تعليلا
صوفيا ، يدركه العاقل الذى أدرك سر الحركة فى الوجود كله ،
وهو على رأى الأستاذ سيد الأهل سببا فى نظرتة تلك التى
لم يحققها العلم الا حديثا ، وهو يقول فى ذلك :

إِنَّكَ الشَّيْءُ عَقِيبُ الْخَرِيفِ
وَجَاءَ الرِّبِيعُ يَلِيهِ الْمَصِيفُ
وَدَارُ الزَّمَانِ بِأَيْتَانِهِ
فَمِنْ دَوْرِهِ كَانَ دَوْرُ السَّرِيفِ
سَرَى فِي الْجِسْمِ بِأَحْكَامِهِ
تَفْثِيذِي اللَّطِيفِ بِهِ وَالْكَثِيفِ
عَجِبْتَ لَهُمْ جَهَلُوا رَبَّهُمْ
وَيَسْعَى الْقَوَى لَهُ وَالضَّعِيفِ
فَأَصْبَحَ كَالْمَاءِ فِي قَدْرِهِ
لَسَدِيهِمْ وَفِي الْمَاءِ سِرُّ لَطِيفِ

وابن عربى فى أدبه عميق الفكرة دقيق المعنى ، لا ينظر الى
ظواهر الأشياء ولكنه يتعمق الى خفاياها ، فيستنبط منها اسرارها
عجيبة وأحكاما غريبة ، وكم من أكل وشارب ، وكم من مشاهد لتقلب
الأيام واختلاف الفصول ، ولكن قليلا من هؤلاء هم الذين فطنوا
الى الحكمة من هذا وذاك .

ابن عربى والموشحات :

وابن عربى كشاعر شارك فى النهضة الأدبية التى كانت شائعة
فى الأندلس ، وسلك بنظمه مختلف الاتجاهات الشكلية التى استعملها
الشعراء حينذاك ، ومن بين ذلك الموشحات التى ازداد خطرها

في الأندلس وأصبحت لها مكانتها ، وافتن الشعراء فيها افتنانا كبيرا ، وأصبحت مجال سبق بينهم ، ومن نماذج موشحاته التي استشهد بها المقرئ قوله :

مطلع : سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاشق الغيران من ذاك في حران يبيد الأئين
دور : يقول والوجد أضناه والبعد قد حـيره
لما دنا البعد لم أدر من بعد من غـيره
وهيم العبد والواحد الفرد قد خـيره
في البوح والكتمان والسر والاعلان في العـالين
أما هو الديان يا عابد الأوثان أنت الضـئين
دور : كل الهوى صعب على الذي يشكو ذل الحجاب
يا من له قلب لو أنه ينكو عند الشـباب
قد قرب الرب لكنـه أفك فأنو المسـاب
وناد يا رحمن يا رب يا منان أنى حـزين

ولا يخفى معرفة ما تدور حولها هذه الموشحة من معان صوفية روحية ، وفي الحقيقة لا يمكن الحكم على أدب « ابن عربي » بعيداً عن تصوفه ، لأن الأدب إنما هو ترجمان الفكر ، وإذا حكمنا غزارة الانتاج الى عمق أفكار « ابن عربي » وجدناه في الأدب فارساً لا يشق له غبار . هذا الى جانب تمكنه القوى في أن يعبر عن الحقائق العلمية بأسلوب أدبي منظوم أو منثور وكتبه العديدة خاصة بذلك اللون . والمقام يضيق عن عرض نماذج من ذلك . ولعمري إن عرض الحقائق العلمية والصوفية بأسلوب مطواع دليل واضح على تمكنه من ناصية الأدب . فالمعروف أن الشعر يعتمد على الخيال والتصوير ومجاله في العاطفة أجلى وأوضح . فإذا ما استطاع الشاعر أن

يعرض بشعره بعض الحقائق دون تعمل وتعقيد كان ذلك دليلا على براعته الفائقة وشاعريته الملهمة ، ولقد عبر ابن عربي نفسه عن ذلك في الفصل الأول من الفتوحات عند تعليقه على قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » بقوله : فان الشعر محل الاجمال والرموز والألغاز والتورية ومعنى ذلك أن مجال الشعر أضيق من مجال النثر في التعبير لاعتماده غالبا على التلويح دون التصريح . والاعتماد على التلويح والاشارة أدق وأبرع ولذلك كان الشاعر موهبة من المواهب التي يختص بها قوم دون قوم . فما بالك اذا كان الشاعر غلبت عليه المعارف الالهامية التي تعز على العقول وتجل عن التعبير فعرضها بالنثر عسير وأذن فعرضها بالشعر أشد عسرا أو أكثر تأبيا الا من كانت له ملكة قوية ومقدرة فائقة .

نثر ابن عربي :

والشيخ الأكبر نثر في القمة الأدبية ، وكتابه « الفتوحات المكية » خير نموذج لذلك ، وهو يعد دائرة معارف للعلوم الصوفية الى جانب ما يتميز به من سرد الحوادث في أسلوب سهل متناسق ، ولا يغفل جانب التشويق في بعض ما يعرضه من قصص ، ويحتوي الكتاب أيضا على نماذج مختلفة منها الوصايا والرسائل والحكم والمواعظ والمعارف الصوفية المختلفة ، وقد سبق عرض بعض نماذج من أسلوبه القصصي في هذا الكتاب ، ومن نماذج أدبه الوصفي ما سيأتي بعد في بيان صفة العارف . عند الحديث عن كتاب الفتوحات .

وفي نشره قد يلجأ الى استعمال السجع والزخرف اللفظي كما نرى في هذه القطعة التي يكتب بها مقدمة « مواقع النجوم » : « لما شاء الله الحق - سبحانه وتعالى - أن يبرز هذا الكتاب الكريم الى الوجود ، ويتحف خلقه بما اختاره لهم من لطائف وبركاته في خزائن جوده ، على يدي من يشاء من عبيده ، حرك خاطري انضاء المطية -

من مرسية الى المرية • فامتطيت الرحال ، واخذت في الترحال ،
مرافقا اطهر عصابة واكرم فتية •• فلما وصلتها لأقضى أمورا
أملتها ، تلقاني شهر رمضان بهلاله ، وصافحني على مسامرته بها
الى اوان انفصاله ، فالتقيت بها عصا التسيار ، واخذت في الذكر
والاستغفار » (١) ••

ونرى استعمال هذا الأسلوب الزخرفي في بعض الكتب الأخرى
— وهو أسلوب هذا العصر — مثل شجرة الكون ، ومحاضرة الأبرار ،
وشرح ترجمان الأشواق •

ومن نماذج نثره الذي يجمع بين الرسالة والوصية كتابه الى
الملك كيكافوس صاحب بلاد الشمال ، ردا على رسالته التي أرسلها
الى الشيخ الأكبر يستشيريه في بعض الأمور : « بسم الله الرحمن
الرحيم ، وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله العزيز أدام الله
عدل سلطانه الى والده الداعي له محمد بن العربي ، فتعين عليه
الجواب بالوصية الدينية ، والنصيحة السياسية الالهية ، على قدر
ما يعطيه الوقت ، ويحتمله الكتاب الى أن يقدر الاجتماع ويرفع
الحجاب ، فقد صبح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة
المسلمين وعامتهم وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين ، وقد قلده
الله هذا الأمر ، وأقامك نائبا في بلاده ومتحكما بما توفق اليه في
عباده ، ووضع لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم ، وأوضح لك حجة
بيضاء تمشي عليها وتدعوهم اليها ، على هذا الشرط ولاك ، وعليه
بايعناك فان عدلت فلك ولهم ، وان جرت قلمهم وعليك ، فاحذر أن
أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا ، الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » •

(١) مقدمة مواقع النجوم •

والتأمل في أسلوب الرسالة يجدها غير متكلفة ، ويظهر فيها أثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما تغلب عليها المعانى الدينية والصوفية التى هى موضوعات كتبه كلها .

كما أننا نحكم منها على علو منزلته في نفوس الحكام ورغبتهم في استشارته والأخذ بنصيحته ونذكر منها حرصه على استئداء النصيحة لمصلحة المسلمين ما أمكنته الفرصة لذلك محملاً الحكام مسئولية تقصيرهم نحو رعيته . وهذا منتهى الشجاعة الأدبية .

منزلة ابن عربى الأدبية :

لسنا في حاجة الى ادراك منزلة « ابن عربى » الأدبية التى وضعتة في القمة بين أدباء المشرق والمغرب ، بل أصبح أحد الذين تمكنوا بمنزلتهم من التأثير في الجو الأدبي الشرقى وقد جعله صاحب كتاب « الشعر الأندلسى » بصفة خاصة عاملاً هاماً في ذلك التأثير ويقول في ذلك : أصبح أعلام الأندلس يخرجون « بيزاد حافل من المعارف ينشرونها في أقطار نائية ، ورجال مثل الحسين بن جبير ، ومحمد بن أحمد الصابونى وابن خروف سينقلون دور الشعر الأندلسى الى آفاق بعيدة . أما الششتري المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ومحى الدين بن عربى بصفة خاصة (٥٦١ - ٦٣٨ هـ) فسينقلان الى مدائن المشرق ما كان يفيض به قلباهما من حرارة الشوق الالهى ، وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة ، وسيقضيان أيامهما في مكاشفة الدراويش ومقاسمتهم العيش » (١) .

ويقول الدكتور « محمد مصطفى حلمى » عنه : لقد خلف « ابن عربى » تراثاً رائعاً في الحب الالهى اشرفت بالأنوار الالهية صفحاته وعبقت بالأسرار القدسية نفحاته (٢) .

(١) الشعر الأندلسى لأميلوفرسيه غومس - ترجمة حسين مؤنس - ص ٣٤ .

(٢) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٢ .

أما الدكتور زكي مبارك فيقرر عنه أنه « فتح الباب أمام الدارسين من الصوفية والفقهاء فكانت كتبه مبعث نهضة أدبية قليلة الأمثال ٠٠ أن ابن عربي لا تعرف أهميته في عالم الأدب والأخلاق إلا أن فكرنا جيداً فيما ترك من الثروة الأدبية والأخلاقية، يجب أن نتذكر أنه ترك ألوف الصفحات ومئات القصائد وأنه راضٍ اللغة على الطواعية للرموز وإشارات » (١) ٠ وتلك براعة من غير شك ٠

هذا رأى أدباء العصر الحديث ونقادهم ، أما آراء من سبقوهم في أدب « ابن عربي » فتظهر في تقريرهم له ، ومن ذلك قول ابن الأثير عنه : « أنه أخذ عن مشيخة بلده ومال إلى الآداب » وقول ابن النجار « له أشعار حسنة وكلام مليح ، اجتمعت به في دمشق في رحلتى إليها وكتبت له شيئاً من شعره » وقول ابن مسعودي : « أنه كان جميل الجملة والتفصيل ، وله في الأدب الشاسو الذي لا يلحق والتقدم الذي لا يسبق » وجاء في عنوان الدراية « هو فصيح اللسان بارع فهم الجنان ، قوى على الإيراد كلما طلب الزيادة يزاده » وقال المقرئ : « ونظم الشيخ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له » ٠

كل ذلك يلقي الضوء على هذه الشخصية الأدبية الرائعة التي كان صاحبها يعتز بالكتاب والعلم والأدب ايما اعتزاز ٠

(١) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ج ١ ص ٢٠٢ ٠

ابن عربى الصوفى

التصوف ليس علما مكتسباً :

لقب ابن عربى بالشيخ الأكبر كما لقب بسـلطان العارفين ، وهذان اللقبان لم يطلقا عليه اعتباطا ، ولكنهما أطلقا عليه عن جدارة قائمة بناء على ما وصل اليه من مكانة رفيعة فى التصوف وعلومه وأذواقه .

والتصوف فى حقيقة الأمر ليس علما مكتسباً يستطيع الانسان ان يحصله بالقراءة ، ولو أفنى فى ذلك زهرة شبابه ونضارة حياته ولكن التصوف ذوق يكتسب بالعمل والسلوك والتهديب النفسى والخلقى . وحين ذلك تثمر هذه المجاهدة أحوالا وأذواقا . قد يعبر عنها الصوفى أو لا يعبر .

ولن يهتدى العقل اطلاقا وحده الى المعرفة الصوفية وحقيقتها بدون سلوك ومجاهدة ، وهذا لابد لهما من ارشاد شـيخ عارف بصير خبير بمسالك الطريق ودروبه وشعابه .

والتربية فى الطريق الصوفى أمر له أهميته ، ويعول عليها الصوفية تعويلا كبيرا ، ولا يكاد يوجد فـذ من أفـذاذ الطريق دون أن

يكون له موجه ومرشد يدلّه على طرق الجهاد ووسائله حتى ينتصر ويدرك ويبصر .

ولقد بلغ « الغزالي » أعلى المنازل العلمية ، وتبوأ عرش المعارف الفكرية ، وقرأ كثيراً من كتب التصوف ، ولكنه لم يصبح صوفياً الا منذ أن أخذ بيده شيخه « يوسف النساج » الى طريق الخير ، وفتح عيونه على مغاليق المعرفة ، فأدرك ما لم يكن يدور في خلد ، وما لم يكن له في حسابان .

والمعرفة الصوفية أسرار أكتنها الله واختص بها أصفیاءه وجعل الطريق إليها محفوقاً بالمخاطر والمعوقات ، وإن يتمكن من سلوكه الا من وطد عزمه على اجتيازه ، وجاهد جهاداً شاقاً ، حتى اذا ما انتصر في جهاده ارتفع الحجاب الكثيف الذي غطى على بصره وبصيرته ، فأدرك من الحقائق في نفسه وفيما يحيط به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والقرآن الكريم يزكى ذلك بقوله : « واتقوا الله ويعلمكم الله » والحديث الشريف يقول : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . وليس غريباً أن يكون للسلوك القويم أثر في تهذيب الوجدان وفي تصفية النفس وتنقيتها وأجلاء مرآتها فتدرك من المعاني أعمقها وتلهم من الأسرار أدقها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « اذا رأيتم الرجل قد أوتى زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقترّبوا منه فانما يلقي الحكمة » . وقيل : « اذا زهد العبد في الدنيا وكل الله تعالى به ملكاً يغرّس الحكمة في قلبه » (١) .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود في هذا المعنى « التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية ، ان الوسيلة اليه ليست هي الثقافة ، ولكن الوسيلة اليه انما هي العمل ، ان الطريق اليه انما هو السلوك والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هي الهام وهي كشف وهي

(١) الرسالة القشيرية .

ملا أعلى انعكس على البصيرة المجلوة ، فتذوقه الشخص حالا
وأحسن به ذوقا وأدركه الهاما وكشفا « (١) » .

والدكتور عبد الحلیم محمود یقرر هذا الكلام حين يتحدث عن
عدم تأثر سیدی أبی الحسن الشاذلی بمصادر أثرت فی سلوكه
أو اتجاهه أو ذوقه ، بناء على أن التصوف لا یدرك بالتلقین أو البحث
أو الدراسة ولكن حقائقه تورث بالعمل والسلوك والمجاهدة ، وإن
كان ذلك یحتاج إلى مرشد وموجه یأخذ بطریق المرید حتی یمسك
بزمam نفسه ، ثم یقول له : ها أنت وربك ، وهذا كما فعل « ابن
مشیس » مع « الشاذلی » رضی الله عنهما .

كيف تكونت شخصية « ابن عربي » الصوفية ؟

وهذا الكلام مفید نصل منه إلى ما نريد ، وهو الإجابة على هذا
السؤال : كيف تكونت شخصية ابن عربي الصوفية ؟ .

تكونت شخصية ابن عربي بواسطة جهاد شاق مریر متواصل
تعددت ألوانه وطرقه ولم تخرج على النمط الصوفي المعروف ،
وهو القيام برياضات مختلفة تتنوع بین العزلة والسیاحة والجوع
والصمت والذكر والتفكر ومجالسة الصالحین واختیار الرفقاء
وحمل النفس على ما تكره من أنواع المشقة فی ضوء الالتزام بالشرع
الحنیف .

وتم ذلك بتوجيه وإرشاد ظهر من سلسلة الشیوخ الذین
التقى بهم ابن عربي وانتفع بنصحهم . وقد سبق الإشارة إليهم .
ولم یغفل فی طریق ذلك الاستفادة من الكتب الصوفية التي وضعها
بالهام من الله كبار الصوفية ، وفي مقدمة ذلك . . الرسالة
القشيرية . . التي لا تزال مرجعا هاما فی التصوف ومؤلفها الامام

(١) أبو الحسن الشاذلی ص ٢٠٨ .

العالم أبو القاسم بن هوزان القشيري المتوفى سنة خمس وستين وأربعمائة . وقد صرح « ابن عربي » أنه قد أفاد منها في بدء سلوكه الطريق (١) .

وكتاب « ختم الأولياء للحكيم القرمذى » وقد كان هذا الكتاب مثار اهتمام الصوفية ومحى الدين بن عربي بصفة أخص (٢) وألف حوله كتابا يجيب فيه عن الأسئلة التي طرحها هذا الحكيم في كتابه .

وكتاب « أحياء علوم الدين » للغزالي ، وأهميته لا تخفى على أحد ، وقد ألقى فيه « ابن عربي » دروسا عامة في مكة (٣) .

كما قرأ كتابا أخرى أشار إلى بعضها في مقدمة كتابه محاضرة الأبرار وذكر منها : مقامات الأولياء لأبي عبد الرحمن السلمي ، وطبقات الصوفية للسلمي أيضا ، وكتاب العزلة للخطابي وكتاب النور وكتاب درجات التائبين ومقامات القاصدين للهروي ، وكتاب حلية الأولياء لأبي نعيم وغيرها .

هذه الكتب التي قرأها « ابن عربي » كان لها أثر من غير شك في توجيهه إلى جانب شيوخه الذين التقى بهم .

سلك « ابن عربي » الطريق الصوفي صغيرا ، فقد كان الحافظ الروحي يدفعه دفعا منذ صغره ، وقبل أن يموت والده كان قد اتجه إلى القيام ببعض الرياضيات المختلفة ومن بينها العزلة ، مما أثار اهتمام « ابن رشد » كما سبق الإشارة إلى ذلك . ولكن « ابن عربي » كان قد أخذ يحظ وأقر من العلوم الشرعية ، وبلغ في اكتسابها مبلغا كبيرا .

(١) ابن عربي ص ١٠٥ .

(٢) أبو الحسن الشاذلي ص ٥٢ .

(٣) ابن عربي ص ٢٦٣ .

وإذن فقد كان تصوفه مبنيا على هدى ويقين ، وعلى أساس متين من الشرع الحنيف ، و « ابن عربي » يقرر مرارا أن تصوفه خال تماما من أى اتجاه آخر غير الكتاب والسنة واجماع المسلمين ، ولذلك نراه يكره التقليد ، وقد أشير الى ذلك . وعلمه هذا جعله علما فى علوم الظاهر قبل أن يصبح علما فى علوم الباطن ، وهو الذى أثار له الطريق ليكون سلوكه عن معرفة وثبات وعزم ، وليكون ذلك عاصما له من الزلل أو الرجم بالغيب أو الخطأ .

وأتاحت له فرصة تعرفه على شيوخ الصوفية تمرسه بأدبهم وقيامه عمليا بأنواع المجاهدات التى أخذ بها نفسه حتى تمكن من الانتصار على نفسه ، ومن نقطة لانتصار على النفس كانت انطلاقة العليا الى قضاء الروح الواسع غير المحدود بقيود المادة والحس . وقد سبق الإشارة الى أن صحبتة الشيوخ مفيدة فى توجيه السلوك ، وليس الشيخ مؤثرا فى المريد بقدر ما هو موجه لسلوكه ، حتى يوقفه على مسالك الطريق ، ثم يهتف به : أن انطلق فقد أصبحت على يقين من خطوك .

وليس أدل على ذلك من أن كثيرا من التلاميذ فاقوا أساتذتهم ذوقا ومعرفة وإدراكا ووصلوا الى مقامات قصرت عنها هم مرشديهم وموجهيهم ، وما ذلك بغريب ، فالفروع قد تفوق الأصول ، والأبناء قد يسبقون الآباء ، ولو وقفت همة مريد عند همة شيخه لما كان هناك مكان للطموح ، ولما أصبح مجال للتقدم والسيبق ، ولتوقفت الخطوات عند مكان ما لا يبرحه هذا أو ذاك .

و « ابن عربي » تلميذ نجيب من غير شك صساحب شيوخه فانتفع بإرشادهم واستفاد منهم سلوكا كان له أثره الطيب المحمود فيما وصل اليه من الهام ومعرفة .

والطريق الصوفي مجاهدات ومعارف ، والمجاهدات طريق

المعارف ، والمعارف ثمار المجاهدات ، وهؤلاء الشيوخ وغيرهم الذين التقى بهم « ابن عربى » كان لهم أثرهم الذى أوضح الرؤية أمام عينيه ، وجعله يتقدم فى طريقه الذى اختاره لنفسه بخطوات ثابتة ، وقطعت الطريق على كل شك خالج نفسه فى صدر حياته الأولى ، ولم يكن لأحد هؤلاء الشيوخ املاء خاص مذهبى فرضه على « ابن عربى » الذى ما لبث أن أصبحت له شخصيته المستقلة التى انطلقت تجوب الآفاق ، تلتقى بالرجال ، وتأتلف بالأخوان ، وتوطد المكانة التى ظفرت بها على مر الزمان .

تمسكه بالشرع :

وكان « ابن عربى » طوال حياته دقيقا فى تمسكه بالشرع الحنيف ، ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة على آدابه ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أن الخروج على الشرع حرمان وزيف ومخافة ، كما كان يعتقد أن الطريق السليم لادراك المعرفة الصافية هو طريق الشرع لا طريق العقل ، ويقول فى ذلك :

لا تعتقد غير الذى تكلوه فى

النص الذى نطق الكتاب المحكم

وعليه قاعتمدوا وقولوا مثلما

قد قاله عن نفسه واستلزموا

وأعبد اله الشرع لا تعبد اله

العقل من هادوا اليه وسلموا

فالناس مختلفون فى معبودهم

فمنزه معبوده ومجسم

وهذه الأبيات تعطينا صورة حقيقية عن حياة الشيخ الأكبر ، هى اعتزازه القوى بالشرع ، واعتماده فى ادراك العلم على الذوق

والكشف لا على العقل ، ولذلك لم يعول إطلاقا على الفلسفة ، ونفر منها نفورا شديدا ، وقد مر بنا كيف كانت مقابلته لابن رشد فيلسوف زمانه وكيف رثى لحاله ، وكيف اتهم أحد الفلاسفة بالكفر حينما رآه يقول في أحد كتبه : وأنا أريد في هذا الفصل أن ننظر كيف نصنع الها في العالم .

ولكن نفوره من الفلسفة لم يمنع أن يكون مرنا غير مقتزمت في مناقشة حججهم . ولذلك نسمعه ينصح في مقدمة الفتوحات بعدم المبادرة الى انكار أقوال الفلاسفة والمتكلمين إذ ربما يكون في كلامهم ما يوافق الشرع والعلم الصحيح ، ويقول في ذلك : « أياك أن تبادر الى انكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلي مثلا ، وتقول : هذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة ، فإن هذا قول من لا تحصيل له ، إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلا يكون باطلا ، فعمسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق » ولا سيما أن كان الشارع صلى الله عليه وسلم صرح بها ، أو أحد من علماء الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتباً كثيرة مشحونة بالحكم والتبري من الشهوات ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خفايا الضمائر ، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرع ، فلا تبادر يا أخى الى الرد في مثل ذلك وتمهل ، واثبت قول ذلك الفيلسوف حتى تحد النظر ، فقد يكون ذلك حقا موافقا للشرعية لكون الشارع قال تلك المسألة أو أحد من علماء شريعته ، (١) .

وهذه النصيحة العاقلة التي ترسم الطريق الصحيح لأدب البحث والمناقشة تحمل الاعزاز الكامل للشرع والاصرار على عدم مخالفته ، وقبول كل ما يوافقه ، وفي الآيات التالية يوضح طريق العلم الصحيح ، ويقرر أن العلم الموهوب لا يكون الا بالحفاظ على الشريعة والتفانى في الطاعة والعبادة :

(١) البواقيت والجواهر ص ٣٣ .

ما لقومى عن حديثى فى عمى
أخذوا العلم عن الفكر وعن
عندنا من جهة العلم به
هكذا قالوا وما عندهم
فعلوم القوم من أنفسهم
أنه يعطى الذى يعلمه
بينهم تبصرهم قد وقفوا
ما أظن القوم الا ندما
كل روح ما له علم بما
جل أن يفهم أو أن يفهم
خبر الذوق بعلم العلماء
وعلموى من اله حكما
لعييد لم يزالوا رحما -
فى المحارب وصفوا القدا .

فهو يفرق بين العلم الذى يكتسبه الانسان من العلماء وبين
العلم الذى يهتدى اليه من الله ، والعلم الثانى يفوق الأول ، لأنه جاء
عن طريق الذوق للحقائق وإدراك الأسرار ، أما الأول فليس
الا صفات معلومة وسطورا مركومة ، وهو يلوم قومه لأنهم لا يبحثون
حديثه فيدركون صدقه ويعرفون أن علومه موهوبة وعلومهم
مكسوبة ، وفرق بعيد بين العلم الوهبى والعلم الكسبى ، والله
سبحانه وتعالى لا يهب علمه الا لقوم خشعوا وتخلقوا بصفات
المؤمنين الذين يقول فى حقهم : رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا
يبتغون فضلا من الله ورضوانا (١) .

وطريق العلم الحقيقى المأخوذ عن الكشف والذوق هو تعظيم
الشريعة واجلالها وإقامتها إقامة صحيحة وهو يقول فى ذلك :

تعظيم ربك فى تعظيم ما شـرعـا

فأصدع فإن سعيد القوم من صدعا

والشريعة هى الطريق الصحيح لتحصيل السعادة ، وهذه
القصة التى يقدمها لنا فى الفتوحات يمكن أن تعطينا دليلا آخر على

(١) منبر الاسلام عدد شوال ٢٨٦ هـ وصفر ٢٨٧ هـ . والآية المذكورة هى

آخر سورة الفتح .

مدى تمسكه بالشرع . يقول : « رأيت في واقعة وأنا ببغداد سنة ثمان وستمائة قد فتحت أبواب السماء ، ونزلت خزائن المكر الالهي مثل المطر العام ، وسمعت ملكا يقول : ماذا نزل اليه من المكر ؟ فاستيقظت مرعوبا ، ونظرت في السلامة من ذلك فلم أجدها الا في العلم بالميزان المشروع ، فمن أراد الله به خيرا وفقه وعصمه من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده » (١) .

وهويلح على هذا المعنى كثيرا ، فقد نقل ابن العماد عنه قوله « العارف يعرف ببصره ما يعرفه غيره ببصيرته ، ويعرف ببصيرته ما لا يدركه أحد الا نادرا ، ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من نفسه فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربه ؟ وهذا مما قطع الظهور سنسدرجهم من حيث لا يعلمون » (٢) .

وينقل الشيعراني عنه قوله في الباب السادس والأربعين ومائتين من كتاب الفتوحات : « اياك أن ترمى ميزان الشرع من يدك في العلم الرسمي بل يادر الى العمل بكل ما حكم به وأن فهت منه خلاف ما يفهمه الناس مما يحول بينك وبين امضساء ظاهر الحكم به فلا تعول عليه ، فانه مكر الهى بصورة علم الهى من حيث لا تشعر ، ثم قال : واعلم أن تقديم الكشف على النص ليس بشيء عندنا لكثرة اللبس على أهله ، والا فالكشف الصحيح لا يأتي قط الا موافقا لظاهر الشريعة ، فمن قدم كشفه على النص فقد خرج عن الانتظام فى سلك اهل الله ولحق بالأخصرين أعمالا » (٣) .

ويعال الشيخ الأكبر لكون علوم الوهب لا تأتي عن روية وفكر بقوله « لو كانت علوم الوهب نتيجة عن فكر أو نظر لانهضرت فى

(١) ابن عربى ص ٦٦ .

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ٢١ .

أقرب مدة ، ولكنها موارد تتوالى من الحق على خاطر العبد ،...
والحق تعالى وهاب على الدوام فياض على الاستمرار والمحل قابل
على الدوام « (١) » . والتوالى لا يكون الا بالمحافظة على الشريعة
والاستمساك باقامتها .

فهذه العوامل التى اجتمعت من استعداد « ابن عربى » لسلوك
الطريق الصوفى ، الى جانب اجتماعه على شيوخ أعمامه على هذا
الطريق ، الى جانب ما قرأ من كتب حبيته فى هذا الطريق ، الى
جانب التزامه جانب الشرع فى طريقه وعدم حيده عنه ، كل ذلك
كون له شخصيته المستقلة العظيمة التى كان لها ذلك الانتاج
الصوفى الضخم عملا وعلمًا .

ثمار التصوف :

وسرعان ما ظهرت ثمار التصوف فى حياة « ابن عربى » بناء
على ذلك النهج الذى انتهجه .

ظهرت فى صورة عزوف كامل عن الدنيا ولذاتها ، فجر ذلك
ينابيع الحكمة فى قلبه ، فأنجلى عين بصيرته ، وارتفعت حجب
الكثافة البشرية فأبصر وأدرك ، واستشف كثيرا من المعانى عن
طريق الكشف أو الإلهام .

وبدأ ذلك الكشف عنده بواسطة الرؤى الصادقة التى ورد
عنها الأثر الكريم : لم يبق من علامات النبوة الا المبشرات ، قيل :
وما المبشرات ؟ فقال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح
أو ترى له .

وكثيرا ما رأى « ابن عربى » رؤى تحققت فى عالم اليقظة كما
راها ، ومن ذلك ما يقصه عن رؤياه التى رأى فيها النبى صلى الله

(١) الكبرى الأحمر ص ٦ .

عليه وسلم اقتلع من أحد شوارع « أشبيلية » التي يكثر المرور فيها نخلة كانت تعترض طريق المارة ، فلما أصبح وجد تحقيق رؤياه .

وهناك أثر يقول : وحى المؤمن منامه . . وذلك واقع وصدق ومتواتر فكثير من الناس تتحقق أمامهم في الحياة أشياء كانوا قد رأوا عنها اشارات أو رأوها بعينها في المنام .

وقد صاحبت هذه الرؤى الصادقة الشيخ الأكبر في حياته وزاد عليها ما كان يراه من تجليات ، هي غريبة في عالم الحس والعقل ، ولكنها ليست غريبة في عالم الحقيقة والكشف ، ومن ذلك مشاهدته بعض الأشخاص يقتحمون عليه خلوته والباب مغلق عليه ، فيحادثهم ويحادثونه ثم ينصرفون دون أن يفتح باب أو مصراع أو نافذة .

ثم يزيد على ذلك ما كان يصاحب جسده من اشراق في أثناء ذكره ، ينبعث من باطنه حتى يبدد ظلام الحجرة التي يوجد فيها ، وقد حدثت له هذه الواقعة في أكثر من مكان ، ومنها « مصر » في أثناء زيارته لها .

ويزيد على ذلك أن يكون له لقساء خاص مع أرواح الأنبياء والأولياء والمؤمنين السابقين على أنحاء مختلفة يفصلها تلميذه « صدر الدين القونوي » بقوله : « كان شيخنا ابن عربي متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء الماضيين على ثلاثة أنحاء : أن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسدا في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التي كانت له في حياته الدنيا ، وأن شاء أحضره في نومه ، وأن شاء أنسلخ عن هيكله واجتمع به » (١) .

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .

وقد أشار شسارح الصلوات الأدرسية الى محادثة الشيخ الأكبر للنبي ادريس عليه السلام والى محادثته للنبي موسى ، كما أشار هو الى ذلك في مواضع مختلفة من كتاب الفتوحات ، ومن ذلك قوله في الباب السابع والستين وثلاثمائة : « اجتمعت روى بهارون عليه السلام في بعض الوقائع ، فقلت له : يا نبي الله ، كيف قلت : فلا تشمت بي الأعداء ؟ ومن الأعداء حتى تشهدهم ؟ والواحد فينا يصل الى مقام لا يشهد فيه الا الله ؟ فقال لى السيد هارون عليه الصلاة والسلام : صحيح ما قلت في مشهدكم ، ولكن اذا لم يشهد أحدكم الا الله فهل زال العالم فى نفس الأمر كما هو فى مشهدكم ؟ أم العالم باق لم يزل وحجبتكم أنتم عن شهوده لمعظيم ما تجلى لقلوبكم ؟ فقلت : العالم باق فى نفس الأمر لم يزل ، وإنما حجبتنا نحن عن شهوده ، فقال : قد نقص علمكم بالله فى ذلك المشهد بقدر ما نقص من شهود العالم فإنه كله آيات الله ، فأفادنى عليه الصلاة والسلام علما لم يكن عندى » (١) .

وقد تكون هذه المحادثة تمت على نحو من هذه الأنحاء المتقدمة .

وعلى نحو من ذلك كان لقاءه المتكرر للخضر عليه السلام وقد أشار « ابن عربى » الى هذا اللقاء عدة مرات .

وظهرت ثمار التصوف فى غير ذلك ، ظهرت فى تلك الخوارق والكرامات التى كانت للشيخ الأكبر التى يضيق المقام عن ذكرها ، كما ظهرت فى معارفه الفائقة التى فاضت بها أشعاره وامتلات بها كتيبه ومصنفاته .

خسرقة التصوف :

ولا بد أن يكون الشيخ الأكبر قد أصبح من الوجهة الرسمية صوفيا بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معان ، والصوفى الرسمى

(١) اليوانيت والجواهر ص ٧٩ .

هو الذى يلبس خرقة التصوف . « وابن عربى » كانت له وجهة نظر حول هذه الخرقة أولا ، فقد كان ينظر اليها على أنها إشارة لمعان وجدانية تهدف الى تهذيب السلوك وتقويم النفس والخلق ، وهو يشير الى ذلك بقوله : « وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن ، فان الخرقة عندما انما هى عبارة عن الصلحية والأدب والتخلق ، ولهذا لا يوجد لباسها متصلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن يوجد صلحية وأدب ، وهو المعبر عنه بلباس التقوى » فى قوله تعالى « ولباس التقوى ذلك خير » .

وقد ارتدى « ابن عربى » خرقة الصوفية أكثر من مرة ، فقد لبسها على يد شيخه على بن عبد الله بن جامع ، وكان الخضر قد لبسها بنفسه لهذا الشيخ ، ولبسها « ابن عربى » فى الموضع الذى لبسها الخضر للشيخ .

كما لبسها قبل ذلك على يد شيخ آخر هو (تقى الدين عبد الرحمن بن على بن ميمون النوروزى) والخرقة أيضا كانت خرقة الخضر .

ويذكر فى الباب الخامس والعشرين من الفتوحات أنه لبس الخرقة من يد الخضر نفسه تجاه باب الكعبة ، وكان قبل ذلك لا يقول بلباسها (١) .

وقد أضاف « ابن عربى » منذ ذلك الوقت الى وجهة نظره الأولى حول الخرقة الإدراكات الذوقية التى تصاحب الرداء الحسى ، والتى يعبر عنها بقوله : « جرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا واحدا من أصحابهم عنده نقص فى أمر ما ، وأرادوا أن يكملوا له حاله اتحد به هذا الشيخ ، فإذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذى عليه فى ذلك الحال ، ونزعة وأفرغه على الرجل الذى يريد

(١) الكبريت الأحمر ص ١٤ .

تكلمة حاله ، ويضمه فيسرى فيه ذلك الحال ، فيكمل له ذلك الأمر
فذلك هو اللباس المعروف عندنا والمنقول عن المحققين من
شيوخنا « (١) » .

وهذا الكلام وإن بدا غريباً من جهة عدم إمكان حدوث اتحاد
بين شيخ ومريد إلا أنه في عالم الحقيقة غير غريب ، فإن الصفاء
الروحي الذي يكون بين شخصين تمازجاً وتصافياً وصلاحاً أن
يقول أحدهما للآخر : يا أنا ، يجعل الاتحاد الروحي غير مستحيل
بيتهما ، ويصدق ذلك قول « أبي الحسن الشاذلي » لتلميذه
« المرسى » رضى الله عنهما : « ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا
أنت » (٢) .

وقد اعتز « ابن عربي » بخرقه التصوف واللبس بيده لكثير
من مريديه ، وقد أشار إلى ذلك في أشعاره ومؤلفاته .
وخرقة التصوف لها آداب وشروط ، وهي ليست مجرد ثوب
يلبس ، ولكنها إشارة إلى منزلة من منازل القوم ، فيها يوطنون
أنفسهم على احتمال الأذى وإنكار الذات وإذلال النفس رغبة في
اعزاز الروح وأضعاف النوازع البشرية طلباً للأنس الروحي .
يقول الأستاذ عبد العزيز سديد الأهل : « أما الصوفية فأنهم
يلبسون الخرقه الظاهرة بحجة إبعاد أبصار الناس عنهم استجلاباً
لأذاهم واحتقارهم ، ويقدر ما يصيبهم الأذى والاحتقار من الناس
يدنون من الله ويلجئون إليه ويكون ذلك دفعا إليهم عن الأغيار » (٣) .

وفي عبارة « ابن عربي » المتقدمة إشارة إلى ذلك ، ولعل السر
في أثر الخرقه يرجع إلى ما تحمله روح الشسيخ من توجيه إلى

(١) ابن عربي ص ٦٢ .

(٢) طبقات الشمراني ج ٢ ص ١٢ .

(٣) مشير الاسلام - شبان ٢٨٦ هـ .

روح اللابس فتتأثر بها وتحاول أن تحلق معها في أجواء المعرفة والمشاهدات ، ولذلك لم يسمحوا بارتداء الخرقه لكافة المريدين ولكنهم حين يشاهدون من أحدهم استعدادا خاصا يكون هو المراد .

ولايس الخرقه من حقه أن يغبط حينئذ لأنه وصل الى منزلة رفيعة وغاية كريمة ، يقول « ابن عربى » معبرا عن ارتدائه خرقه التصوف عن طريق الرمز لنفسه باسم « شرف » :

سألت شرف أن تلبسها	خرقة القوم على شرط الوفا
حين ثابت عندنا من كل ما	كان منها قبل هذا سلفا
فاجبتناها الى ما سئالت	باعتقاد ووداد وصفنا
وامرناها بأن تلبسها	كل من كان بخير عرفا
وهي لما لبستها سبحت :	حسبى الله تعالى وكفى .

فهو هنا يوضح أن نفسه حين لجأت الى التوبة وتطهرت من المعاصي كان من حقها أن تسمى « شرفا » وأن تطلب ارتداء الخرقه لتصبح من القوم « وأنها لتستحق ذلك بعد التوبة والاشهاد عليها امام الاتقياء واستمرارها على الطهارة والتوكل والرواح الى الله وحده بقلب منيب ومثل هذه النفس يحق لها أن تطلع على أسرار القلوب ، فتعرف منها الخير والذى لا خير فيه فتولى نحو الأول وتعزف عن الثانى ، وانقطاعها الى الله وحده والتسبيح بحمده دون الأغيار يكفيها فى درجة المعرفة وييسر لها طريق الوصول » (١) .

(١) منبر الاسلام — جمادى الاولى ١٣٨٦ هـ .

مجاهدة وأذواق ومعارف

التصوف مجاهدة ومعرفة • والمعرفة ثمرة من ثمار المجاهدة ،
كما أن المجاهدة طريق لتحصيل المعرفة • وأى تعبير يدور حول
المجاهدة والحث عليها هو صدق التصوف العملى ، كما أن التعبير
عن الثمار التى تثمرها المجاهدة صدق للتصوف النظرى •

والمجاهدة فى الطريق الصوفى سلوك وأخلاق ، فالسلوك يكون
بالتزام ألوان خاصة من العبادة والطاعة يضاف إليها ألوان تختلف
سهولة وعنفًا من الرياضات على حسب حالة السالك وما يرتئيه
الموجه •

ولا تكاد تخلو طريقة من طرق الصوفية من ذلك الإلزام الذى
تأخذ به مریدیها فى حزم حتى يصلوا الى الغاية المطلوبة •

ولن يتقدم المرید خطوة واحدة ما لم يكن له من الخلق زاد
وراحلة • والصوفى يحتاج الى ما يستحث خطاه ويقوى عزمه ويثبت
أرادته ، فكان لابد من تعبير أدبى يصاحبه فى رحلته ويشد من أزره
ويقوم معوجه ويعينه على عثرات الطريق ، ويبين له آداب الطريق
وما يجب أن يأخذ وما يدع •

أذواق ابن عربي ومعارفه في ذلك :

وقد نظم أدياء الصوفية ونثروا في هذه المعاني الشيء الكثير ، وابن عربي لم يغفل هذه الناحية في شعره ونثره ، فكتب عنها مدققا ومقعدا وواضعا خطوات يسير عليها أبنائه وتلاميذه وغيرهم ممن تجتذبهم الطريق ويستهوهم الهدى .

كما كتب عنها مستحثا ودافعا الى مواصلة الجهاد في ذلك الطريق ، وبذلك يكون قد أدى للتصوف العملى حقه من الأداء في اتجاهين :

الاتجاه الأول : الطريق الصوفى وما يحتاج اليه من آداب ومعاملات وما يلزم المريد فيها من ضرورات كإتخاذ الشيخ وتصحيح الإرادة وملاحظة الوقت والمداومة على الورد وغير ذلك مما يعد الحديث فيه من قواعد التصوف ، والكتابة في ذلك أدخل في باب العلم الصوفى .

والاتجاه الثانى : هو الحث على سلوك الطريق والدعوة الى التخلص بالأخلاق الفاضلة من زهد وتوبة وصدق وإيثار وغير ذلك مما يعد الحديث فيه صدى لعاطفة تجعله أدخل فى باب الأدب الصوفى ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك .

وقد ترك الشيخ الأكبر في ذلك ذخيرة حية وكتبه التى طبع منها وما لم يطبع تعد ثروة للتصوف لا تنفذ ذخائرها ، فقد عبر فيها عن كل شيء يتصل بالتصوف ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا وأدلى فيها ببيان .

تناول الشيخ الأكبر المريد من بدء سلوكه الى نهاية مرحلته في الطريق ، وأوضح له في كل خطوة يخطوها ما يجب عليه وما يستحب له . ويمكن تلخيص ذلك عن كتبه العديدة التى حققت بكل هذه المعانى والتى جاء بعضها خاصا بذلك ، وجاء بعضها تتناثر في ثناياها تلك المعلومات والمعارف ، ونذكر بعض آرائه هنا للبيان :

١ - ضرورة اتخاذ الشيخ :

أول ما ينبغي للمريد عمله التوبة ، ويجب له أن يبحث له عن شيخ فاضل متمكن توفرت فيه الشروط اللازمة لتربية المريدين ، وقد أشار الى ذلك بقوله : شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاج اليه في التربية^(١) ويقول : لابد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك وحينئذ يقال له أستاذ^(٢) . والشيخ ضروري في رأى « ابن عربى » فهو يقول : من لم يكن له أستاذ فإن الشيطان أستاذ^(٣) . وهو ينظر في ذلك الى ضرورة القدوة ، والى أن العقل وحده لا يكفى في اكتساب المعرفة الحقيقية ، وقد سبق الإشارة الى ذلك والى اعتقاده بأن العلم الحقيقى لا يتم الا عن طريق الذوق أو الكشف ، وهذان لا يتمان الا بواسطة التهذيب النفسى والخلقى على يد بصير عارف متمكن . و « ابن عربى » في ذلك يبنى رايه على تجربة خاصة اكتسبها من شيوخه الذين صحبتهم وقد وافق على هذا الرأى من سبقه ومن لحقه من أئمة التصوف . فالكلاباذى صاحب التعرف على مذهب أهل التصوف ينشد لبعض الكبار :

من رآه بالعقل مسترشدا سرجه في حيرة يلهو
وشاب بالتلبيس أسرار يقول من حيرته هل هو ؟^(٤)
والشيخ حسن رضوان صاحب مطهرة النفوس ينظم ما ننشره هنا باختصار : « ليس في إمكان المريد الاهتداء الى طريق الحق من غير اقتداء ، فلا بد له من دليل عارف يكون له حصنا من الوسوس

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ١٩٦ .

(٢) رسالة الامر المحكم الربوط ص ٤ .

(٣) الامر المحكم ص ٣ .

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦٢ .

وغيرها ، فإن أخذ الأدب من أصحابه ظهرت له الأسرار الباطنة في ألفاظها فتنتفع به الأرواح وتصفو ، أما الذى يقول : ان الشخص تغنيه كتبه عن الشيخ فهو واهم فى قوله ، « لأنه يمكنه أن يرى كشف الحجب ولا يمكنه صرف النفس عن هواها » (١) .

وشيوخ الصوفية جميعا يوجبون اتخاذ الشيخ - وان كان الدكتور على صافى حسين فى كتابه الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى يرى أن بعض الشيوخ ومنهم الشاذلى لا يستوجبون على المريد اتخاذ شيخ له (٢) .

ولكن الواقع ان الشاذلية اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة وأوجبوا على المريد أن يكون له شيخ ، وقد جاء هذا على لسان غير واحد منهم ، ومن هؤلاء ابن عطاء الله السكندرى الذى يقول فى مفتاح الفلاح « وينبغى لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ فاضل من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم فى خدمة مولاه فاذا وجدته فليمتثل ما أمر ولينته عما نهى عنه وزجر » ومنهم ابن عجيبة الحسنى الذى يقول فى غير موضع من كتابه : ايقاظ الهمم على شرح الحكم : لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدا .

ويحكى الدكتور أبو الوفا التفتازانى حياة ابن عطاء الله السكندرى - وهو لسان حال الشاذلية - قائلا : « ونخلص من كل ما سبق الى أن ابن عطاء الله السكندرى كان خاضعا فى حياته الصوفية لما يخضع له السالكون من اشراف شيخ مرشد بصير عارف بالطريق الى الله ، ولما يصطنعونه من مجاهدة النفس ومحاربة يرى أن القلب دليل على عدم الاخلاص فى عبادة الله » (١) .

(١) دوحى القلوب المستطاب ص ٢٨٣ .

(٢) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٤٤ .

(٣) ابن عطاء الله ونصوفه ص ٤٤ .

وان كان هناك من فرق بين رأى « ابن عربى » ورأى « الشاذلى » فهو أن ابن عربى يلح في « تحريم تغيير الشيخ بل وزيارة غيره بدعوى أن يجد عند هذا الآخر أفضل وأيسر ، إذ هو يرى أن القلب دليل على عدم الاخلاص في عبادة الله » (١) .

أما الشاذلى فقد كان متسامحا في هذه الناحية ، وكثيرا ما كان ينصح بعض المريدين بالتوجه الى غيره من الشيوخ اذا كان في ذلك نهوض لحالهم (٢) .

ولا يتعارض رأى « ابن عربى » مع سلوكه الخاص فقد عرفنا أنه صاحب كثيرا من الشيوخ قدره بعض المترجمين لحياته بخمسة وخمسين شيخا ، لأنه كان متمكنا من حاله لا يخشى عليه من ذلك التغيير ، ولم يكن اصطحابه لهؤلاء الشيوخ الا طلبا في الاستزادة من « البركة » التى يحملونها ورغبة في التعسرف الى أحوالهم وتواضعا لهم . أما المريد الذى يقدم له « ابن عربى » هذه النصيحة فهو الذى عرضه للوساوس والأوهام ، وهو يخشى عليه من تقلبه وتردده بين الشيوخ انقراط العزيمة وانحلال العقد وضياح الاخلاص .

وضرورة اتخاذ الشيخ في رأى « ابن عربى » وغيره من الصوفية لا تتنافى مع استعمال العقل الذى اعتز به الاسلام فالعقل ضرورى فى النواحي التى اوصى الله سبحانه وتعالى باستعماله فيها وذلك مثل التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار للاستدلال من ذلك على قدرة الله تعالى وعظمته وأحاطته ، وهذه درجة عظيمة من درجات العبادة ، أما استعمال العقل فى الوصول الى ذات الله فعنه .

(١) ابن عربى ص ١٢٨ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « شاذلى » .

فإذا ما علم ضرورة اتخاذ الشيخ وجب على المريد أن يراعى مع هذا الشيخ آداباً معلومة حتى يمكنه الاستفادة الكاملة من مصاحبته ، ومن هذه الآداب في رأى « ابن عربى » أن يكون باراً بأستاذه وألا يعترض عليه بقلبه أو بلسانه ، وأن يكون بين يديه « كالميت بين يدى الغاسل » وأن يكون مطيعاً لكل ما يصدر إليه من الشيخ من تعليمات وأن يقتفى خطواته وأن يحترمه في غيبته وحضوره وأن يتحجب إليه دائماً وأن يؤثره على نفسه (١) .

وليس في ذلك الغاء لشخصية المريد ولكنه تثبيت لها ، لأن الهدف من وراء ذلك تنقية النفس من كافة شهواتها وفي مقدمتها الرغبة في التسلط والغرور ، ولن يقضى على ذلك إلا إذا قلعت أظفارها بالخضوع الكامل الذى يمحى الإرادة لمن يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة ، فهو بذلك يعميت نوازع النفس ليحيى معالم الروح ، ويقضى على داء الأثرة ليقيم معانى الايثار ، وليس ذلك غريباً ، فالتواضع رفعة والكبرياء ذل وقد امتدح الله قوما يحبهم ويحبونه بأنهم أنذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين ، وإذا كان الله قد أمرنا بخفض جناح الذل من الرحمة لوالد الجسد فمن الأولى أن يكون ذلك خفض لوالد الروح ورسالته أشرف ومهمته أقدس .

وآدب الصوفية مع شيوخهم مستمد من آدب الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يقول الله في حقه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (٢) ، ويقول في حقه : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » (٣) وشيوخ الصوفية

(١) الأمر المحكم ص ٥ - مواقع النجوم ص ١٠٢ .

(٢) النساء ٦٥ .

(٣) الأحزاب ٦ .

يسيرون على قدم رسولهم الكريم • ويؤدون واجبهـم نحو رسالته السامية ، فلا بد أن يتحلى تلاميذهـم بالأدب الذى كان يتحلى به الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم •

٢ - الخلوة :

ويأمر الشيخ مريده بالخلوة إذا رأى فى ذلك ما يصلحه ، وعلى المريد حينذاك ألا ييارحها إلا باذن شـيخه فى الحدود التى توضحها أصول الطريق ، وهى أن يكون خروجه لأداء جماعة أو قضاء حاجة أو سعى فى ضرورات الرزق •

فإذا ما خرج فعليه أن يكون غاض البصر معلق القلب بالله ذاكرا له بلسانه مغلقا سمعه عن كل ما يؤذيه فى باطنه أو يقطع عليه تأمله وتذكره وحضور قلبه وهمته •

وفى الخلوة يمارس ألوانا من الذكر والتسابيح وتلاوة القرآن ، وصيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وقد يطالع بعض الكتب الصوفية والشرعية التى تعينه على وقته •

وتثمر الخلوة فى رأى الشيخ الأكبر وغيره من الصوفية ثمارا عظيمة متى روعى فيها المطلوب وهو لا يخرج عما أشير إليه ، يضاف إليه الاقلال من الطعام وطول السهر وكثرة التأمل •

وهذه الثمار اليانعة للخلوة تظهر فى العفة والطهارة وذلك بسبب البعد عن المغريات ، وفى الزهد لأنه أصبح حالا للقلب بما انطبع فيه من كراهيته للدنيا وتعال على مبانئها ، وفى التجريد الذى يعد قمة أحوال الصوفية وذلك بما يصحب المريد من تفويض كامل وتوكل حقيقى ، ويصل به الى مقام البتول مريم التى كانت « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » •

كما أن من ثمارها التواضع الذى ينشأ عن شهود الافتقار الكامل الى الله ومشاهدة عظمتة وقدرته وهيبته ، وكلما اشتدت هيبة المريد لله ازداد انصحاقه والشعور بضعفه وذله ، ومن كلام ذى النون المصرى « من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته » وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى : يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد (١) .

ومن ثمار الخلوة الصفاء كما هو ثمرة للتواضع أيضا ، ويفهم ذلك من قول ذى النون السابق . والصفاء هو المقدمة الكبرى لما يأتى بعد ذلك من نتائج قيمة فى الطريق الصوفى ، والصفاء ينتج عن انجلاء مرآة القلب بذهاب ما تراكم عليها من ظلمة وكثافة وبانجلائها تصبح قابلة لمختلف الادراكات الذوقية والكشفية .

وينتج عن الخلوة مدى استعداد المريد لبلوغ المقامات والأحوال المختلفة كالتوكل وما يترتب عليه من تسليم وتفويض والمحبة وما تستتبعه من شوق ووجد وأنس وقرب ، والمعرفة وما تحققه من فناء وبقاء .

٣ - استخدام الوقت :

ويعتنى « ابن عربى » شأنه شأن غيره من الصوفية بتدبير الوقت وحسن استخدامه والمتتبع لكلامه فى كتبه وبخاصة الأنوار ومواقع النجوم يرى كيف يلح على ضرورة استفادة المريد من وقته الذى هو كالسيف ان لم يقطعه المريد بالعمل قطعه الوقت بالمقت .

والوقت لابد أن يكون مقسما بين فعل الخير والعبادة ، ويدخل

(١) فاطر ١٥ .

في نطاق فعل الخير السعي في اكتساب الرزق الحلال وفي الاحسان والتصدق واعانة الغير وعيادة المريض وتشجيع الجنائز والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من افعال الخير التي لها صلة وثيقة بترقية المجتمع ، ويدخل في نطاق العبادة كل ما يعود على النفس من تخلية وتصفية وتحلية . فالتخلية بالتوبة ، والتصفية بالرياضة والتحلية بالذكر والتسبيح والتلاوة وما شابه ذلك .

على أن ذلك كله لا يمكن أن يؤتى ثماره المطلوبة ما لم يكن تحت ارشاد شيخ ، ويتصل بذلك في حسن استخدام الوقت محاسبة النفس ومراقبتها ، حتى يقطع الطريق على وساوسها وخطراتها ، والمحاسبة لها أثر كبير في تهذيب النفس وترقية الوجدان وتحسين السلوك ، وعليها يتوقف نجاح المريد في الوصول .

ويرى « ابن عربي » أن يقسم المريد ليله ونهاره تقسيما دقيقا ويختص كل ساعة بأعمال صالحة معينة ، وقد فصل ذلك في كتابه « كنه ما لا بد للمريد منه » ووضع تخطيطا اجماليا لتوزيع الساعات بما يشغل أوقات الفراغ من تلاوة ومحاسبة وفكر^(١) .

وتدبير الوقت له أثر كبير في تنظيم الحياة لدى الصوفية ، ولذلك نراهم لا يشكون من أوقات الفراغ كما يشكو غيرهم ، ولكننا نراهم كثيرا ما يشكون من ضيق الوقت الذي لا يسعفهم بأداء حقوق الله الواجبة الأداء وشاعرهم يقول في ذلك :

وزادى قليل ما أراه مبلغى الزاد أبكى أم لطول مسافتي

ويعتبر المحاسبة اطمأنوا في حياتهم ، وفرغوا من القلق النفسى الذى نفص حياة كثير من الأفراد ، لأنهم أقاموا من ضمامائهم سلطانا حيا ، يراقب تصرفاتهم وسلوكهم ، ولذلك ارتفعوا بنفوسهم

• (١) ابن عربي ص ١٥٦ .

عن الأنانية وحب الذات ، كما بعدوا عن مسالك النفاق ومدارج
الظهور .

٤ - الأخوة :

اعتنى « ابن عربى » بالأخوة فى الله وحياته الطويلة الحافلة
قضاها فى صحبة اخوان صادقين كان يعتز بأخوتهم ويتغنى
بصداقتهم ويسعى فى حاجاتهم ويؤثرهم على نفسه ، وكان يتحدث
كثيرا عن الأخوة التى تربطه بغيره ممن اتفق مشربه واتحد هدفه
معه . وهو يذكر شيوخه وأخوانه فيقول عنهم « وما من واحد
الا وعاشرته معاشرة مودة واحتزاج ومحبة منهم فينا » .

و « ابن عربى » يكره التكلف بين الاخوان بل يحب أن يتعاملوا
فيما بينهم بالانبساط وعدم التكلف ، وله كتاب أشار اليه فى
مجلس جماعة من أصدقائه الذين كانوا يحتشمون أسمه : « الارشاد
فى خرق الأدب المعتاد » وكان يهدف من الإشارة اليه أن ينبسطوا
معه فى مجلسه ويكفوا عن التكلف والسكون . وهذه الناحية
السلوكية تدل على مدى عنايته بالأخاء فى الطريق الصوفى ، ولذلك
نجدته ينص عليه كثيرا فى رسائله ومصنفاته ، ويرى أن الأخوة
تعين على السفر وتبديد الوهن فى العزم وتقوى الهمة وتبعد الملل .

ويرى « ابن عربى » أن المرید ينبغي أن يكون ايثاره غير قاصر
على اخوانه ، بل يجب أن يشمل أفراد المسلمين ، فهذا من صفات
الصديقين فعليه أن يبذل ما له بسخاء وأن يخدم الفقير وأن يعين
المحتاج وأن « يعين العمال على رفع حملة وأن يعنى بالمرضى ، وأن
يهدى الضال ، وينبغى عليه أن يفضل الفقير على الغنى دائما ،
وفى ذلك لون من ألوان الشجاعة الأدبية ، ومظهر يدل على قوة
الشخصية التى تنأى عن مواطن الرياء والمداهنة .. وعلى الصوفى

أن يسير في الطرقات مزيلا ما يعترضها من عقبات تقف دون سير
الغير من أحجار وأشواك» (١) .

هذه السعة الخلقية التي يراها « ابن عربي » لازمة للمريد
وضرورة من ضرورات سلوكه في مجتمعه غير مفرق بين أفراد هذا
المجتمع ، هي التي تحتم على المريد أن يكون سلوكه من باب أولى
مع أخوانه غاية في الايثار والتعاون والصفح والمودة والرعاية .

٥ - ما يعين على بلوغ الغاية :

ولم يترك « ابن عربي » التنويه على الأسباب التي من شأنها
تبلغ بالمريد الى أعلى درجات الرقي والكمال وهي كثيرة سبقت
الإشارة الى بعضها ومن بين هذه الأسباب :

١ - المحاسبة : وهي تعد ركنا أساسيا في الطريق الصوفي ،
وعمادها الشرعى قوله عليه الصلاة والسلام : حاسبوا
أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وأثرها النفسى قوى لأنها تترك المرء يصلح نفسه أولا
بأول ، وقد اعتنى الصوفية قديما وحديثا بهذا الأساس ، « وابن
عربي » له في ذلك تجربة عملية فقد صاحب بعض الشيوخ
الذين كانوا يحاسبون أنفسهم على ما يقولون ويفعلون ، فزاد
هو عليهم محاسبة نفسه على خواطره ، وتلك مرتبة عليا
وجديرة بأن تبلغ بصاحبها الى الكمال الخلقى والروحى .

٢ - الدعاء : ويعتنى « ابن عربي » بالدعاء على أنه أحد الأسباب
التي يبلغ بها المريد غاية الطريق ، والدعاء يتنوع بين صلاة
وذكر وتأمل وتلاوة .

(١) ابن عربي ص ١٥٣ .

(١) الصلاة ، وهى فى اللغة الدعاء ، وتجمع بين الابتهاال والتسبيح والمناجاة والتلاوة والصلاة على النبى فى أدائها ، وهى اذ أدبت على شريطتها المطلوبة حققت معنى الخشوع والخضوع والانتقياد الكامل وحصول الأتس واستحضار الهية وأصبحت الصلة الحقيقية بين العبد وربّه ، وتنوع الصلاة بين الفرض والنفل ، وهى كلما ازداد المرید إقامة لها ازداد اقبالا على الله وقربا منه ومحبة له .

(ب) الذكر ، وله أثر نفسى رائع ، فبذكر الله تطمئن القلوب ، وله أثر روحى يظهر من قوله تعالى : اذكرونى اذكركم ، ومن الأثر القدسى : اذا ذكرنى عبدى فى ملا ذكرته فى ملا خير من ملئه .

والذكر يورث الصفاء ويعمر القلب لأنه يقوم بمهمة التصفية والتخلية اللتين تعقبان التخلية ، والتخلية (أى تخلية القلب من آثاره المنمومة) تكون بالاستغفار والتوبة والندم ، فاذا ما طهر القلب وجب شغله وتعميره ، ويتم ذلك بواسطة الرياضة والذكر ، والذكر يورث أنوارا تتمكن فى القلب وتكشف أمامه الحجب .

(ج) التأمل ، وهو ضرورى للمريد لأنه عبادة الصديقين ، والتأمل فى رأى « ابن عربى » لا يكون فى ذات الله ، استنادا الى الأثر الوارد : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله ، والأثر الوارد : البحث عن الذات اشراك والعجز عن الادراك ادراك . ويورد ابن عربى فى ذلك شعرا :

قل لامرئى رام ادراكا لخالقه
العجز عن درك الادراك ادراك
من دان بالحسيرة الغراء فهو قفى
لغاية العلم بالرحمن دراك
واى شخص أبى الا تحقيقه
فان غايته جدد واشراك

فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحي جرت بها فوق جو النسيك أفلاك

فالتأمل في رأى « ابن عربى » يجب أن يكون للعظة والاعتبار
ولادراك قدرة الله وسعة حيطته وعلمه وأنه فعال لما يريد ، وذلك
مطلوب شرعا لقوله تعالى : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار آيات لأولى الألباب - الذين يذكرون الله قياما وقعودا
وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت
هذا باطلا ، سبحانه ففنا عذاب النار » (١) .

أما التفكير في ذات الله فممنهى عنه في رأى « ابن عربى » بمقتضى
الفهم من قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » (٢) أى لا تتفكروا فيها .

وهذه حقيقة اتفق الصوفية وغيرهم عليها ، « فالمحارث المحاسبى
يقول : اكمل العاقلين من أقر بالعجز أنه لا يبلغ كنه معرفته . وهذه
حقيقة لا مرأ فيها وهى العجز عن ادراك ذات الخالق ، ومن حاول
أن يدرك فعجزه دون الغاية وأقرب بعجزه فهو غاية الادراك ، والعجز
كله لكل المخلوقات حتى الملائكة التى تحف بالعرش ، وهى الرقائق
النورانية ، وقد التقى في ذلك صوفية المسلمين وفلاسفتهم » (٣) .

وفي الحقيقة ان الاعتراف بالجهل في هذه الناحية هو عين
المعرفة ، لأنه دليل تام على عظمة الله واحاطته وقدرته الخارقة التى
لا يحيط بها علم ولا يدركها عقل . نقل صاحب الشذرات عن ابن
عربى قوله : « أجمعت الطائفة على أن العسلم بالله عين الجهل به
تعالى » (٤) .

(١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) آل عمران ٢٨ .

(٣) عبد العزيز الأهل - منبر الاسلام رجب ٢٨٦ هـ .

(٤) الشذرات ج ٥ ص ١٩٦ .

وقد عبر عن هذا المعنى أحد صوفية العصر الحديث هو شيخنا
السيد محمد علي منصور الأقدمي قائلا فيما كان يريده أحيانا :

عجزت - نعم - عن درك سر وجودي
وجهمت حتى صار جهلى شهودي

واجلاء الصحابة الذين كانوا نبراس هدى لنا ورد عنهم ذلك
الاقرار بالعجز الذي هو عين الادراك ، فقد سئل أبو بكر الصديق
رضي الله عنه : بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ، قيل : وكيف
عرفته ؟ قال : العجز عن الادراك ادراك .

(د) التلاوة : وقد أدرك ابن عربى سرها منذ كان مصاحبا
لوالده وراه مواظبا على تلاوة القرآن الكريم وأدرك منه سر الاثر
المشهور « يس لما قرئت له » فقد تلاها عند رأسه وهو مريض في
غيبوبة الحمى ، فرأى أجساما نورانية لطيفة تحيط به وتدفع عنه
أذى المرض ، ويروى عنه صاحب كتاب ابن عربى هذه القصة التى
وردت في الفتوحات « مرضت فغشى على فى مرضى بحيث انى كنت
معدودا فى الموتى ، فرأيت قوما كريهين المنظر يريدون اذائتى ،
ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عنى حتى قهرهم ،
فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا سورة يس أدفع عنك ، فافقت من
غشيتى تلك ، وإذا بابى رحمه الله عند رأسى يبكى وهو يقرأ سورة
يس وقد ختمها فأخبرته بما شهدته » .

وأدرك سر سورة الفاتحة وهى أم السكتاب من فاطمة بنت
ابن المثنى القرطبى فقد كانت تتلوها فيتيسر امامها كل مطلوب ،
ويروى « ابن عربى » عنها قولها : انى والله لمتعجبة ، لقد أعطانى
حبيبى فاتحة الكتاب تخدمنى فوالله ما شغلتنى عنه .

ويعلمنا « ابن عربى » كيف كانت تقرأ هذه المراءة الفاتحة

فيقول : - « انشأت تقرا فاتحة الكتاب وقرأت معها ، فعلمت مقامها عند قراءة الفاتحة ، وذلك أنها تنشئها بقراءتها صورة مجسدة هوائية » .

ومن الشيوخ الذين صاحبهم ابن عربي يواظبون على تلاوة القرآن « محمد بن قسوم الأشبيلي » الذي يقول عنه : « انه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة في حضرة التوحيد وتارة في الجنة وتارة في الاعتبار وتارة في الأحكام بحسب ما تعطيه الآية حتى يصبح فيخرج من صلاته وقد أطلع على علوم كثيرة في تلاوته من الله تعالى ، لم تكن عنده فهمه الله تعالى إياها من القرآن » .

وتلاوة القرآن لها حقا ذلك السر العجيب ، وصاحبها من الذين لهم تجارة رابحة « ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (١) .

وآداب التلاوة عند « ابن عربي » يوضحها بقوله : - « اذا وفقك الله وتريد أن يسمع الحق جل اسمه منك تلاوتك ويرسمك في ديوان التالين ، فأعلم منازل التلاوة ومواطنها ، وذلك أن تعلم أن على اللسان تلاوة وعلى الجسم بجميع أعضائه تلاوة وعلى النفس تلاوة وعلى القلب تلاوة وعلى الروح تلاوة . فتلاوة اللسان ترتيل الكتاب على الحد الذي رتب المكلف له ، وتلاوة الجسم المعاملات على تفاصيلها في الأعضاء وتلاوة النفس التخلق بالأسماء والصفات ، وتلاوة القلب الاخلاص والفكر والتدبر وتلاوة الروح التوحيد » (٢) .

٦ - المقامات والأحوال :

الحال يطلق لغة على الوقت الذي أنت فيه وما عليه الشخص من خير أو شر ويطلق اصطلاحا لدى الصوفية على المعنى الذي يرد

(١) سورة فاطر ٢٩ .

(٢) مواقع النجوم ص ٨٢ .

على القلب بلا تصنع ولا اكتساب ، والمقام يطلق اصطلاحاً على : ما يتحقق به العبد من الآداب مما يتوصل اليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف « (١) » .

والمقامات هي مراحل الطريق الى الله وفيها تظهر حقائق السالكين والمريدين كل على حسب قدرته وعزيمته وقوة صبره في الجهاد .

وعلى هذا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

ويختلف الصوفية في تحديد المقامات والأحوال على حسب أنواقهم ومشاربهم ، فالغزالي رضى الله عنه يرى أن المقامات هي التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة (٢) .

وابن عطاء الله السكندري يرى أنها هي التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة (٣) .

والطوسي - رضى الله عنه - يرى أنها التوبة والورع والزهد والفقر والتوكل والرضا (٤) .

أما ابن عربي فيذكر « أسين بلاثيوس » في كتابه أن أهم المقامات التي يذكرها في « الفتوحات » هي التوكل والشكر والصبر والرضا والعبودية والاستقامة والاخلاص والصدق والحياء والحرية والغيرة والولاية والرسالة والنبوة والمحبة ، وفي كتابه « تحفة السفرة » و « مواقع النجوم » يذكر بعض المقامات الرئيسية مثل : الاستواء والتسليم والأنس والخوف والرجاء واتحاد الإرادة مع إرادة الله (٥) .

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) الأحياء الجزء الرابع .

(٣) التصوف في الشعر العربي .

(٤) اللمع للطوسي ص ٦٥ .

(٥) ابن مري حياته ومذهبه ص ١٩١ .

ومن هذا ندرك أن ابن عربي بينه وبين غيره من الصوفية موافقة على بعض المقامات كما أنه انفرد عن غيره بذكر بعض المقامات كما انفرد غيره كذلك .

واختلافهم راجع إلى تعدد الأنواق وهي قواعد غير ثابتة ولكنها اجتهادية تدرك من واقع ما يكشف لهم من علوم ومعان ، فما يكشف لهذا قد لا يكشف لذاك وما يدركه رجل قد لا يدركه رجل آخر .

٧ - أسرار العبادات :

وابن عربي في دعوته إلى التمسك بأسباب النجاة ووسائل الكمال وفي مقدمة ذلك المواظبة على العبادات المختلفة لا يغفل عن أسرار هذه العبادات وما تهدف إليه من غايات وتربية للروح وإيقاظ للمشاعر .

وهو في ذلك ينبه على أهمية الشرع وضرورة اتباعه وعدم الغفلة عنه لما يحتوي عليه من دقائق يفتن إليها اليقظ ويغفل عنها الكسول .

والشرع في رأي « ابن عربي » ليس قشرا والحقيقة لها كما يرى البعض ، ولكن الشرع في رأيه شجرة فارعة ثمارها الحقيقة والمعرفة ، وكلما أمعن المريد في ممارسة الشرع ظهرت له حقائق وتكشفت أمامه أسرار لا يمكن أن يدركها من غير طريقها الأساسي وهو إقامة الشريعة على أصولها .

ولذلك نسمعه ينبه مرارا على أن العلم الحقيقي لا يمكن إدراكه بغير الشرع وتطبيق محكم الكتاب والسنة - وقد مر بنا بعض النصوص الواردة في ذلك - ونضيف إليها قوله : « لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكما واحدا من شسرات الأنبياء

فمن ادعى المعرفة واستشكل حكما واحدا في الشريعة المحمدية
او غيرها فهو كاذب» (١) .

ويقول الشعراني تعليقا على ما فهمه من قول « ابن عربي » في
كتابه الفتوحات حول هذا المعنى « يجب على الولي متابعة العمل
بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله تعالى له في قلبه عين الفهم عنه فيلهمه
معاني القرآن ويكون من المحدثين » (٢) .

ومما يدل على تعمقه الى باطن الأشياء قوله في الباب الخامس
والعشرين من الفتوحات : « ان معنى « عبرة » في قوله تعالى
« ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » من العبور لا من الاعتبار . ومعنى
ذلك لا تقفوا على ظاهر الأمر بل اعبروا من مظاهر تلك الصورة
الى باطنها » (٣) .

ولكى ندرك مدى عناية ابن عربي بالتنبيه على أسرار العبادات
نستمع اليه وهو ينصح المريد وهو يتأهب للصلاة بقوله : — « فإذا
توضأت فاسع في الخروج من الخلاف وتوضأ أسبغ وضوء ، وسم الله
في بدء كل حركة ، واغسل يديك بترك الدنيا منهما ، ومضمض بالذكر
والتلاوة ، واستنشق بشم الروائح الالهية ، واستبر بالخشوع وترك
الكبر ، واغسل وجهك بالحياء ، وذراعيك بالتوكل ، وامسح رأسك
بالمثلة والافتقار والاعتراف ، وامسح أذنك باستماع القول واتباع
أحسنه ، واغسل قدميك لايطاء كثيب المشاهدة ، ثم اثن على الله بما
هو أهله ، وصل على رسوله الذي أوضح لك سنن الهدى صلى الله
عليه وسلم ، وقف في مصلاك بين يدي ربك من غير تحديد ولا تشبيه ،

-
- (١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .
(٢) الكبريت الأحمر ص ٢٢ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك وتحقق أن ما في الوجود
أحد إلا هو وأنت فتخلص ضرورة ، وكبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك
وإذا تلوت فكن على حسب الآية المتلوة فإن كان ثناء عليه فكن أنت
المحدث وهو الذى يتلو كتابه عليك فيعلمك الثناء عليه فيما يثنى به
على نفسه ، وكذلك فى آية الأمر والنهى وغير ذلك لتقف عند حدوده
وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها فى قلبك لأدائها
والمحافظة عليها ، والحظ ناصيتك بيده فى ركوعك ورفعه وسجودك
وجميع حركاتك فتسقط لك الدعوى فى هذه الملاحظة حتى تسلم ،
فإذا سلمت فابق على عقدك أنه ما ثم أحد غيرك وربك سبحانه ،
وسلم باللفظ على من أمرك فإن سلامك على نفسك «(١)» فهو فى هذا
النص المنقول من التدبيرات الإلهية يدرك السر من التعبد وينبه على
ملاحظته عند ممارسة العبادة .

يقول فى الباب الثامن والسنتين من الفتوحات : اشترطت النية
فى التيمم ولم تشترط فى الوضوء لأن الماء سسر الحياة فهو يعطى
الحياة بذاته سواء قصد أو لم يقصد بخلاف التراب لأنه كثيف
لا يجرى على العضو ولا يسرى فى وجه القصد فافتقر الى القصد
الخاص بخلاف الماء (٢) .

وهذا ادراك خاص لسر من اسرار الطهارة بالماء والتيمم .

وله فى معنى الاستنشاق فهم رائع يوضحه فى هذا الباب ،
« فالاستنشاق بالماء فى الأنف لأن الأنف محل العزة والكبرياء والماء
طهارة ، فكان فى ذلك إشارة الى نثر الكبرياء والتبرى منه بالانقياد
والخضوع لله (٣) » .

(١) ابن عربى ص ١٦٦ .

(٢) الكبريت الأحمر ص ٣٠ .

(٣) محاضرة الأبرار ج ١ ص ١٦٣ .

ويفهم من الصلاة سر اشتقاقها من « المصلى » وهو الذى يلى
السابق فى الحلية ، والسابق هنا هو التوحيد ، والمصلى هى الصلاة ،
ويشهد لذلك حديث : بنى الاسلام على خمس •

« وابن عربى » يفهم من معنى استلام الحجر الأسود فى أداء
فريضة الحج معنى ساميا يقضى بالمبايعة لله ، وهو ينظر الى الأثر
الوارد : الحجر يمين الله فى الأرض • وينشد :

من يطع الإرسال صدقا فقد	أطاع من أرسلهم والسلام
كمثل من بايع معبوده	وانما بايعه فى الأمام
وقد أتى أوضح من ذا وذا	فى الحجر الأسود بالاستلام
فقل لمن يفهم ما قلت له	بعد الذى سمعته : لا كلام

كما يدعو فى أبيات أخرى الى تقبيل الحجر الأسود مشيرا الى
مداومة الاتباع ورعى المودة وحفظ الذمام ومنبها على رتبة المعرفة •
يمين المؤمن الركن اليماني أبايعه لأحظى بالأماني
يمين مالهها حجب تعالت عن الحجاب والحجب المباني
أمنت بلثمها من كل سوء يصيرنى الى دار الهوان (١)

وهذه الأسرار التى توصل اليها الصوفية من العبادات هى
المفهوم الزائد لهم ، وهى الخاصية الدقيقة التى أطلق عليهم من
أجلها : علماء الحقيقة ، ولقد فهم الصوفية ذلك لأنهم تناولوا معنى
العبادات بأرواحهم وأقاموها بآركانها وشعائرها الحقيقية المطلوبة
وكان الاخلاص رائدهم فى اقامتها ، وذلك هو المطلوب فعسلا لقوله
تعالى « فاعبد الله مخلصا له الدين » ولقوله « وما أمروا الا ليعبدوا
الله مخلصين له الدين حنفاء » والاخلاص هو روح العبادة ، وهو سر
من أسرار الله يضعه فى قلب من يشاء من عباده • وبالاخلاص
استنارت قلوبهم فأدركوا من المعانى ما لم يدركه غيرهم •

(١) محاضرة الأبرار ج ١ ص ١٦٢ •

تعبيرات في التصوف النظرى :

وفي التصوف النظرى الذى يعد ثمرة الجهاد المتواصل في الطريق الصوفى ، كما يعد صدق للانفعالات العنيفة التى تتردد في نفس الصوفى وتمتلىء بها روحه ، ويعد تعبيرا عن المعارف التى يتذوقها أو يكشف بها ترك « ابن عربى » في ذلك ثروة ضخمة كان لها اثرها بين الصوفية والفقهاء . وسنعرض لموضوعين من ذلك .

١ - الحب :

ويقصد به هنا حب الله جل وعلا ، وهو عند « ابن عربى » حب يسمو على كل شيء ويرتفع بالانسان الى درجة من القداسة تصل به الى أعلى المراتب ، لأنه لا بد أن يكون ثمرة لما مر به من جهاد متواصل ، وتحقق به من أرفع آيات الأخلاق والفضائل .

وحب الله تضاربت فيه الأقوال بين الفقهاء والصوفية ، فالفقهاء ينكرونه على أساس أن حب الله لا بد أن يتمثل في طاعته والافتداء بنبية مصداقا لقوله تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ولا يجوز أن يقع الحب الا بين متماثلين ، ولا مماثلة بين العبد والرب (١) .

ولكن الصوفية يجيزونه على أساس أن القرآن الكريم قد صرح به في قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » وقوله « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وفي الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » .

وليس هنا مظهر لهذا الحب أبلغ من التذلل بذكره والتفانى في عبادته والتعظيم لاسمه والهيام بجماله ، والتعبير عن ذلك بما يشبه

(١) الادب الصوفى في مصر ص ٩٥ .

الغزل الحسى صوّرنا لهذه العاطفة النبيلة المستكنة في القلب
والشعر .

قال الدكتور زكى مبارك « تكلم الصوفية جميعا في الحب
لأن هذه الحال هي الفاصل بينهم وبين أهل الشريعة الذين يعبدون
الله طمعا في الثواب وخوفا من العقاب ، ولا يستقيم حال المتصوف
إلا إذا قرغ من دنياه وأخراه فلا يكن له مارب إلا لقاء الحبيب» (١) .

وحب الله غاية نبيلة لدى الصوفى - ولدى ابن عربى بصفة
خاصة - وهو طريق للمعرفة الكاملة عنده ، فهو يرى أن المحبة
أشواق واحتراق ، أما المعرفة تمكين وثبات ويعبر عن ذلك بقوله :
المحب إذا سكت هلك ، والعارف إن لم يسكت هلك (٢) .

ولأن المحبة طريق المعرفة يفسر هذا البيت الوارد في ترجمان
الأشواق :

عهدى بمثلك عند بائك قاطفا

ثمر الخدود وورد روض أينع

يقوله : - « كم شهدت من محب مشتاق بروضك يقطف من
ثمر معارف القيومية ، يعنى التخلق بها ، وقد اختلف أصحابنا في
التخلق بصفة القيومية ومذهبى التخلق بها ، وفيما تحمله الوجنات
من الحمرة المستفادة من (ورد روض أينع) إشارة الى مقام
الحياء الذى نتج عن المراقبة والمشاهدة » (٣) .

(١) بين التصوف والأدب ص ٨١ .

(٢) رابعة المدوية ص ١٢٥ .

(٣) ذخائر الأعلام ص ١٠٤ بتصرف .

وقد تقلب « ابن عربى » فى مقام الحب ، واصطلى بناره وله فى ذلك آثار رائعة سبق الإشارة الى بعضها - ولا يفى المقام بالاقاضة فيها - وخلص من مقام الحب الى مقام آخر قصرت عنه عزائم الكثيرين وهو مقام المعرفة الذى ظفر فيه عن جدارة بلقب « سلطان العارفين » ومن أهم هذه الآثار : ترجمان الأشواق ، الذى يقول فى مقدمة شرحه :

ليت شعري هل سـروا	أى قلب ملكـوا ؟
وفـؤادى لسـو درى	أى شـعب سـلكوا
اتـراهم سـلـموا	أم تراهم هـلكوا ؟
حـسار أرباب الهـوى	فى الهـوى وارـتـبـكـوا

وهذا تصوير لحيرة العاشق . والحب عند « ابن عربى » ليس كلاما يقال ، أو اشعارا تروى ، ولكنه أخلاق ومدارج ومعارج تسفك فى الصعود اليها الدماء وتطل الأرواح .

ولا يكمل مقام المحب حتى يضافى عليه الحب ثوبا قشيبا من الخير والتسامح ونكران الذات ، وحتى يؤمن بنظرية الشمول الواسعة فى الرحمة والمحبة ، فالخلق جميعا مظهر قدرة المحبوب الأعلى ، وهم على اختلاف مذاهبهم لا يخرجون عن دائرة إرادته ومشيتته فلماذا يكن لهم بغضا أو يحمل لهم ضغنا ؟

وابن عربى صاحب القصيدة المشهورة التى يقول فى آخرها :

أدين بدين الحب أتى توجهت

ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهو حريص على الرمزية فى حبه شأنه فى ذلك شأن غيره من الصوفية حرصا على المعانى والأسرار وصونا للقداسة والروحانيات التى أدركها ، ومن ذلك قوله فى ترجمان الأشواق :

سلام على سلمى ومن حل بالحمى
 وحل لثلى رقة أن يسسلا
 وماذا عليها أن ترد تحية
 علينا ، ولكن لا احتكام على الدمى
 سرورا وظلام الليل أرخى سدوله
 فقلت لها : صبا غريبا متيما
 فأبدت ثنىاياها وأومض بارق
 فلم أدر من شسق الحنادس منهما
 وقالت : أما يكفيه أنى بقلبيـــــــــــــــــه
 يشاهدنى من كل وقت ، أما وما ؟
 والحب عذاب ، ويحلو التذلل فى سبيله ، ويعبر ابن القارض
 عن ذلك المعنى بقوله :
 تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهلا
 فما اختاره مضىنى به وله عقل
 وعش سالا فالحب راحتته عنا
 وأوله سقم وأخوه قتل
 أما ابن عربى فيقول :
 إذا حلل ذكركم خطا طرى
 فرشيت خسدودى مكان القراب
 وأقعسدى النذل فى بسايكم
 قعود الأسارى لضرب الرقاب

ومن أجل هذا الحب الخطر الذي لا يهدأ قلب صاحبه ، ولا ينال في طريقه راحة ، لأنه حب محقوف بالمخاطر ، تعرض « ابن عربي » وغيره من الصوفية للسلب بالسنة حداد ، الى جانب ما كانوا يكابدونه في نفوسهم من عذاب الوجد ومشقة الصمد ، وبعد الشسقة ، وطول المسافة ، وهم لذلك أصبحوا بين نارين : نار الحب ونار العذل .
ليس ذلك مما يبعث الرثاء لهم والعطف عليهم والرحمة بهم ؟

٢ - الانسان الكامل أو الحقيقة المحمدية :

أول من تحدث في هذا الأمر الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ ، فهو يقول : : أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم وجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأهم » (١) .

وجاء ابن عربي بعد ذلك فجلى هذه الفكرة وأوضحها في مواضع متفرقة من كتبه ، وبين أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الانسان الكامل ، وفتح الطريق لمن جاءوا بعده من الصوفية الى التعبير عنها تعبيرا يختلف من واحد الى آخر على قدر مفهومه وذوقه وإدراكه .

و « ابن عربي » ينظر الى النبي صلى الله عليه وسلم على أنه بشر ، ولكنه لم يكن كغيره من البشر ، فهو انسان كامل منذ مولده ونشأته ، وهو يتقلب من كمال الى كمال ، ولذلك أعطاه الله جوامع الكلم واختصه بها ، كما أعطاه معاني الأسماء وحقائقها ، أما آدم فقد علمه الأسماء فقط .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم انسانا كاملا فهو قد جمع الكمال من أقطاره ، في كل قول وفعل وفي كل ما يأتي ويدع ، وهو

(١) التصوف في الشمر العربي ص ٢٤٦ .

القدوة الكاملة والأسوة الحسنة وهو أكمل نبي وأفضل مبعوث .
وقد اختصه الله بمقام الفردية . ولذلك أطلق عليه ابن عربى فى كتاب،
قصص الحكم هذا المنطوق « فص حكمة فردية فى كلمة محمدية » .
ويعبر عن حقيقة محمد الكاملة الذى يطلق عليه « الانسان
الكامل » فى كتابه شجرة الكون بقوله : « ان الله كون الأكوان اقتدارا
عليها لا افتقارا اليها ، وكمال حكمته فى التكوين وذلك لظهار شرف
الماء والطين ، فانه اوجد ما اوجد ولم يقل فى شيء من ذلك : انى
جاعل فى الأرض خليفة ، وكان وجود آدمى ، فكانت حكمته فى
وجود آدمى لظهار شرف النبى صلى الله عليه وسلم ، لانه حكمة
الأجساد ولا استخراج كاف الكنزية : كنت كنزا مخفيا لا أعرف .
فكان المقصود فى الوجود معرفة موجدهم سبحانه ، وكان المخصوص
باتم المعارف قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن معارف
الكل كانت تصديقا وإيمانا ، ومعرفته صلى الله عليه وسلم مشاهدة
وعيانا ويتور معرفته تعرفوا ، وبفضله عليهم اعترفوا ، فاستخرجه
من لباب حبة « كن » كزرع أخرج شطأه فآزره بصحابته ،
فاستغلظ بقرابته فاستوى على سوقه بصحة ذوقه وقوة توقه
وشوقه » (١) .

و « ابن عربى » يؤكد أن النبى صلى الله عليه وسلم أكمل
موجود فى هذا النوع الانسانى ، ولذلك بدء به الأمر وختم ، وكان
نبيا وآدم بين الماء والطين ، وليس أدل على ذلك من انه حين سئل
صلى الله عليه وسلم : متى كنت نبيا يا رسول الله ؟ قال : وآدم بين
الروح والجسد ، كما روى عنه : كنت أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم
فى البعث (٢) .

(١) شجرة الكون ص ٧ .

(٢) محمد الانسان الكامل - مقال للدكتور محمد مصطفى حلمى - منبر

الاسلام .

أما كيف كان أولهم خلقا فقد أشار الى ذلك «ابن عربى» بقوله :
« لما قبض الله آدم من قبضة تراب « كن » مسح على ظهره حتى
يميز الخبيث من الطيب ، فاستخرج من ظهره من كان من أصحاب
اليمين ومن كان من أصحاب الشمال ، ثم اعتصر من شجرة « كن »
صفوة عنصرها ، ومخضها حتى بدت زبدتها ، ثم صفاها وألقى
عليها من نور هدايته ، حتى ظهر جوهرها ثم غمسها في بحر الرحمة ،
ثم خلق منها نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم زين بنور الملائكة
الأعلى حتى أضاء وعلا ، ثم جعل ذلك النور أصلا لكل نور ، فهو
أولهم في المسطور ، وآخرهم في الظهور » (١) .

ورسم « ابن عربى » الطريق لمن جاء بعده ليعبر عن هذه الحقيقة
ومن هؤلاء « الجيلى » الذى ألف كتابا أسماه « الانسان الكامل »
في معرفة الأواخر والأوائل . وفيه يقول : ثم أنهم (أى الأنبياء)
متفاوتون في الكمال منهم الكامل والأكمل ولم يتعين منهم بما تعين به
صلى الله عليه وسلم في هذا الوجود من الكمال الذى قطع له بانفراده
فيه ، شهدت له بذلك أخلاقه وأحواله وأفعاله وبعض أقواله ، فهو
الانسان الكامل ، والباقيون من الأنبياء والأولياء الكمل صلوات الله
عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل ، ومنتسبون اليه انتساب
الفاضل الى الأفضل ، ولكن مطلق لفظ الانسان الكامل حيث وقع
في مؤلفاتي إنما أريد به محمدا صلى الله عليه وسلم تأديبا لمقامه
الأعلى ومحلّه الأكمل الأسنى » (٢) .

ولم يترك « ابن عربى » فرصة للتعبير عن أجلاله لهذا النبي
الكريم على ضوء هذه الحقيقة التى أدركها الا وجلى فيها ببيانه
الصافى ومنطقة الواقى شعرا كان أو نثرا ، ومن ذلك ما نقرؤه له

(١) شجرة الكون ص ٦ .

(٢) الانسان الكامل ... للجيلى ج ٢ ص ٤٤ .

مباهيا يوراثته لذلك الرسول الكامل ومبايعا له ومقارنا بينه وبين
موسى عليه السلام ، حيث أن موسى شرف بالكلام فقط ، أما محمد
فقد شرف بالاسراء والرؤية والمشاهدة .

ورثت الهاشمي أخا قريش	بأوضح ما يكون من الدليل
أبايعه على الاسلام كشفا	وأيماننا لألحق بالرعيـل
أقوم به وعنه اليه حتى	أبينه لأبناء السـبـيل
سرى في النور حتى كان أدنى	من القوسيين في ظل ظليـل
وشرف بالكلام أخوه موسى	على كتب وذلك بالمسـيـل
وأين العرش من واد بقساع	كما أين الكليم من الخليـل ؟

ابن عربى بين انصاره وخصومه

عبر « ابن عربى » عن الأسرار التى لاحت له فى أثناء طريقه وعن المعارف التى كوشف بها أو أدركها بذوقه ، ومن ذلك تعبيره عن الحب الالهى واقاضته فيه ، وحديثه عن الحقيقة المحمدية بالصورة التى أوضحها وبين رأيه فيها ، كما عبر عن مقابلاته مع الأنبياء والسابقين والأولياء والمؤمنين ، وعبر عن مشاهداته لمختلف الروحانيات التى لا تقع تحت الحس ولا يمكن أن يدركها العقل ، وعبر عن أسرار المقامات والأحوال وما يصاحبها من تأثيرات نفسية وروحية ، وتحدث عن الدقائق الخفية التى تنتاب الصوفى فى نهاية طريقه فيرى أشياء تحار فيها الأفهام ويدق فيها الكلام الى غير ذلك .

و « ابن عربى » ترك ثروة سخية من غير شك فى ذلك ، وهذه الثروة عرضت أمام مجاهر النقد القديم والحديث ، وأدى كل من القدماء والمحدثين برأيه فى قوله ، فمن معجب وناقم ومن مدافع ومهاجم .

ولكن الذى يحمد لابن عربى هو حيده فى التعبير — على حد قول الدكتور زكى مبارك . عنه فى ذلك : انه علم الناس كيف

يخوضون في أخطر الأحاديث ثم يسلمون^(١) ، فابن عربي في تعبيره عن هذه الأسرار كان متمكنا من نفسه ، لم تأخذه الدهشة ، ولم يغلب عليه « الشطح » في كل أحواله ، وكان أمينا في تعبيره قلم يصور شيئا خارجا على حدود الشريعة وكل كلمة قالها أو كتبها استطاع الصوفية أن يجدوا لها متاولا شرعيا من غير تكلف ينسبونها إليه .

وحدة الوجود :

ولكن برغم ذلك فقد وجد بعض الطاعنين له منافذ ينفذون منها الى الطعن عليه والنيل منه . ومن ذلك الفكرة التي أسندت إليه ، وهي فكرة « وحدة الوجود » فقد أشير إليه على أنه صاحب مذهب في الوجود وفي الوحدة ، وفي صدور الموجودات عن موجدتها ، ويصح أن نوضح المقصود بوحدة الوجود لدى الصوفية .

وحدة الوجود لدى الصوفية ناتجة عن طول تأملهم في آيات الله والآله التي أبدعها فبدا عليها أثر خلقه وإنشائه وأبداعه ، فنور الله وقدرته وجلاله وجماله يبدو على هذه الآيات كما يبدو تأثير المؤثر في الأثر ، وقد يقرب من هذا المعنى ما أراده ذو النون المصري حين هتف يناجي ربه : « الهى ما أصغيت الى صوت حيوان ولا الى حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا قعقة رعد الا وجدت لها شاهدة بوحدايتك دالة على أنه ليس كمثلك شيء . » ومثل هذا قول الدكتور زكي مبارك على لون من التجوز :

ومن أنت يا ربى ؟ أجبنى فأننى رايتك بين الحسن والزهر والماء

وهذا لا يقصد منه حلول أو اتصاف أو اندماج بين الخالق والمخلوق . ولكن يقصد منه ظهور قدرة الله وآثاره وعظمته في العالم بأسره .

(١) التصوف الاسلامي وآثره في الأدب والأخلاق ج ١ ص ٣٠٣ .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وهذا المعنى يعبر عنه استاذنا السيد محمد علي منصور
الأقدمي - رضى الله عنه :

واينما وليت لم أر غيره محيطا ، ولم يدركه عبد هوام
ومعنى يدركه أى يدرك هذه الحقيقة وهي شهود الاحاطة •
وعبد الهوى محال أن يدرك مظاهر قدرة الله تعالى المحيطة •

فوحدة الوجود في رأى الصوفية غيرها في رأى الغربيين
والمستشرقين ، لأن الصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكنهم يرون
أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وإنما الوجود الحق لله
تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو (١) • أما غيرهم فيرون أن
الروح والمادة شيء واحد •

وحقيقة هذه الحقيقة عند الصوفية قائمة على المعرفة
الحقيقية لله ، فقد قال معسروف الكوخى : « إذا انفتحت عين
بصيرة العارف نامت عين بصره فلا يرى إلا الله » وهذا ما يعبر
عنه الشيخ حسن رضوان في كتابه روض القلوب المستطاب :

وكل ما سواه نجم أفل بل في شهود العارفين باطل
ويعلق على ذلك بقوله : - « أن كل ما سوى الله تعالى من
الأعيان الظاهرة والماهيات الممكنة علوية أو سفلية باطل في شهود
العارفين من حيث ذاته ، فلا حقيقة له أزلا وأبدا ، وإنما الوجود
حقيقة كذلك هو ذات الحق تعالى ، وليس لتلك الأعيان والماهيات
الظاهرة وجود حقيقى ذاتى لها » •

ويستشهد الشيخ حسن رضوان على بيان هذه الحقيقة
واجلائها بقول الجيلي :

(١) اعلام التصوف الاسلامى لطفه عبد الباقى سرور ج ١ ص ٨٥ •

وما الخلق في التمثال الا كثلجة وانت بها الماء الذي هو تابع
وما الثلج في تحقيقنا غير مائه وغير أن في حكم دعته الشرائع
ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه ويوضع حكم الماء والأمر واقع
تجمعت الأضداد في واحد اليها وفيه تلاشت وهو عنهن ساطع

فمثل رضى الله عنه العالم بالثلج ، والحق تعالى - وله المثل
الأعلى - بالماء ، وليس الا الماء في الحقيقة والثلجية طارئة عليه .

فليس الا الله والمظـــــــــــــــــاهر لجملة الأسماء وهو الظاهر^(١)

وهذه المعاني مستفادة من بعض الآثار « كان الله ولا شيء معه
وهو الآن ما عليه كان » ويوضح هذا المعنى استشهاد الامام الرندى
في شرحه لحكم ابن عطاء الله السكندرى بقول القائل :

الله قل ، وتر الوجود وما حوى ان كنت مرتادا لنيل كمال
قالكل دون الله ان حقتـــــــــــــــــه عدم على التفصيل والاجمال
واعلم بانك والعوالم كلهــــــــــــــــا لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته في ذاته فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فتوا بأن لم يشهدوا شيئا سوى المتكبر المتعالى
وراوا سواء على الحقيقة هالكا في الحال والماضى والاستقبال

وذلك عند شرحه لهذه الحكمة العطائية : « مما يدلك على وجود
قهره - سبحانه - ان حجبك عنه بما ليس بموجود معه »^(٢) .

ويفصل ابن عجيبة هذا الأمر تفصيلا عجيبا حيث يقول :
« قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ولم أره حديثا ،

(١) دوح القلوب المستطاب ص ٦ .

(٢) شرح الرندى على حكم ابن عطاء الله ج ١ ص ١٩ .

وانما هو من قول بعض العارفين : فأهل السير من المریدین يشهدون الكون ثم يشهدون المكون عنده وبأثره ، فيمتحق الكون من نظرهم اليه ، وهذا حال المستشرف ، وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل وجود الخلق ، بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلا ، اذ لا ثبوت له عندهم ، لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة قانون عن الحكمة غرقى في بحار الأنوار ، مغموس عليهم الآثار ، وفي هذا المقام قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان انما يشهدون الكون ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده ، وانما يستدلون على وجوده بوجود الكون ، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين ، فقد أعوزهم وجود الأنوار وحجبت عنهم شمس المعارف بسحب الآثار ، ثم يستشهد ابن عجيبة بقول القائل :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد

الا على أكمله لا يبصر القمر

لكن بظنت بما أظهرت محتجبا

وكيف يعرف من بالعزة استترا ؟ (١)

وقد أكثر الصوفية في التعبير عن هذه الحقيقة حتى أوهم هذا الاكثار فكرة الخلط بين القديم والحديث ، ولكن حاشا للصوفية — وهم أعرف الناس بالله — أن يقصدوا ذلك ، وهم يستأنسون بقول على كرم الله وجهه « الحق تعالى ليس من شيء ولا في شيء ولا فوق شيء ولا تحت شيء ، اذ لو كان من شيء لكان مخلوقا ولو كان فوق شيء لكان محمولا ، ولو كان في شيء لكان محصورا ، ولو كان تحت شيء لكان مقهورا » .

وكل ما يؤكد الصوفية هو هذا المعنى المستفاد من الاثر : كان

(١) ايقاظ الهمم ص ٥١ .

الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، فليس الكون في نظرهم كما يعتقد الغربيون شيئا واحدا لا فرق بين قديم وحديث على نحو ما فهم المستشرق « نيكلسون » في كتابه الصوفية والاسلام ، ودعواه بأن الصوفية انتهوا الى أن العالم جميعه وفيه الانسان واحد مع الله بالضرورة (١) .

وقد سبقت الإشارة الى كثير من ماثورات الصوفية التي تؤكد فهمهم حول هذه الحقيقة بما لا يتناقى مع قدرة الله وديموميته واحاطته وفرديته . ويؤكد الدكتور « عبد الوهاب عزام » ضرورة مراعاة الفرق بين فهم الصوفية وغيرهم لحقيقة وحدة الوجود بقوله : « ينبغي أن يفرق بين وحدة الوجود التي رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود في رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شيء واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وإنما الوجود لله تعالى فليس هو العالم ولا العالم هو » (٢) .

وعلى هذا الفهم يمكن أن يفسر كلام « ابن عربى » الذى يفهم منه فكرة وحدة الوجود . وهذا الكلام هو الذى أشار اليه الدكتور أبو العلا عفيفى فى دائرة المعارف الاسلامية بقوله : ويتلخص مذهبه (وحدة الوجود) فى عبارته القصيرة الواردة فى الفتوحات ج ٢ ص ٦٠٤ وهى « سبحانه من خلق الأشياء وهو عينها » وفى البيتين الآتين الواردين فى الفصوص إشارة الى هذا المعنى :

يا خالق الأشياء فى نفسه انت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهى كونه فيك فانت الضيق الواسع

(١) التصوف عند المستشرقين ص ٢٩ .

(٢) اعلام التصوف الاسلامى ج ١ ص ٨٥ .

قَابِن عَرَبِي فِيمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ عِبَارَاتٍ تَوْهَمُ فِي ظَاهِرِهَا فِكْرَةَ الْوَحْدَةِ بَيْنَ الْخَسَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْهَمَ إِلَّا عَلَى أَسَاسِ فَهْمِ الصُّوْفِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْوَحْدَةِ ، وَهُوَ الَّذِي أُشِيرَ إِلَيْهِ فِيمَا سَبَقَ • وَقَصَدُوا مِنْهُ أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَالَمُ أَوْ الْعَالَمُ هُوَ اللَّهُ •

سَلَامَةُ عَقِيدَةِ ابْنِ عَرَبِي :

وَلَيْسَ فِي عَقِيدَةِ ابْنِ عَرَبِي تَغْيِيرٌ لِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَلَيْسَ مِنَ السَّهْلِ الْحُكْمُ عَلَى رَجُلٍ كَابْنِ عَرَبِي بِأَنَّهُ يَغْيِرُ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَعْظُمُ الشَّرِيعَةَ أَيْمًا تَعْظِيمٌ وَلَكِنَّهُ يَقْرَرُ : - « أَنْ الْحَقَّ ثَابِتٌ فِي الْوَهَيْتِهِ قَبْلَ اثْبَاتِ الْمَثَبِ ، وَمَنْ كَانَ ثَابِتًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى اثْبَاتِكَ ، إِذَا مَا ثَمَّ مِنْ تَثْبِثِ الْوَهَيْتِهِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى يَنْفَى ، وَإِنَّمَا تَعْبُدُ الْمُؤْمِنُ بِذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّلَاوَةِ لِيُؤْجِرَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ » وَهَذَا ذَوْقُ عَالٍ فِي الْفَهْمِ •

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « لَا مَوْجُودَ إِلَّا اللَّهُ » فَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ إِلَّا هُوَ تَعَالَى ، وَمَا سِوَاهُ قَائِمٌ بِغَيْرِهِ ، كَمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ حَدِيثًا : « لَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ ، وَمَنْ كَانَتْ حَقِيقَتُهُ كَذَلِكَ فَهُوَ إِلَى الْعَدَمِ أَقْرَبُ ، إِذَا هُوَ وَجُودٌ مُسَبُّوقٌ بِعَدَمٍ ، وَفِي حَالٍ وَجُودِهِ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ وَجُودٍ وَعَدَمٍ ، لَا تَخْلُصُ لِأَحَدٍ الطَّرْفَيْنِ ، فَإِنْ صَحَّ أَنَّ الشَّيْخَ ابْنَ عَرَبِي قَالَ : لَا مَوْجُودَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَلَاَشَتْ عِنْدَهُ الْكَائِنَاتُ حِينَ شَهَوْدَةِ الْحَقِّ تَعَالَى بِقَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْجَنِيدُ : مَنْ شَهِدَ الْحَقَّ لَمْ يَرِدْ الْخَلْقُ •

وَأَمَّا قَوْلُهُ مِمَّا يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ جَعَلَ الْحَقَّ وَالْخَلْقَ شَيْئًا وَاحِدًا
مِثْلُ :

فِيحْمَدُنِي وَاحْمَدُهُ وَيَعْبُدُنِي وَأَعْبُدُهُ

فَإِنْ مَعْنَى يَحْمَدُنِي يَشْكُرُنِي إِذَا أَطَعْتَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « أَذْكُرُونِي

أذكركم « ويعبدني معناها يطيعني ، بإجابته دعائي ، كما قال تعالى :
« لا تعبدوا الشيطان » أي لا تطيعوه .

وإذا كان قد ورد في الفتوحات العبارة التي وردت سابقا مما يفهم منها الوحدة بين الحق والخلق ، وهي : سبحانه من خلق الأشياء وهو عينها ، فقد ورد في كثير من المواضع ما يدل صراحة على أن العالم ما هو عين الحق تعالى ولا الحق عين العالم ، ويستدل « ابن عربي » على ذلك بدليل عقلي ، وهو أنه لو كان عين الحق لما صح أن يكون الله سبحانه بديعا (١) .

وقد مر بنا في المحادثة التي تمت بينه وبين هارون النبي عليه الصلاة والسلام ما يشير إلى حقيقة رأيه وفي أنه لم يقصد هذا الاندماج بين الحق والخلق .

ولقد أفرد الشعراشي في كتابه اليواقيت والجواهر مبحثا خاصا ينفي فيه عن الشيخ الأكبر ما الصقه به خصومه من دعوى الحلول والاتحاد مستشهدا على براءته بكلامه هو في الفتوحات وغيرها .

وكل ما ورد عنه من الفاظ موهمة وجدت لدى ذائقي كلامه وفاهمي اشاراته متأولا صحيحا ، ومن ذلك ما يرويهِ المقرئ في نفح الطيب عن محيي الدين بن عربي : « قال رحمه الله تعالى قال لي بعض أخواني لما سمع هذا البيت :

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

كيف تقول : انه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟
فقلت له مرتجلا :

يا من يراني مجرما ولا أراه أخذا
كم ذا أراه منعما ولا يراني لائذا

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٥ بتصرف .

ويعقب المقرئ على ذلك قائلا : « من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ - رحمه الله تعالى - مؤول وأنه لا يقصد ظاهرة ، وإنما له محامل تليق به ، وكفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة فاحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد ، وللناس في هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أحسن والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم » (١) .

ومما يحكيه المقرئ عن الياقعي قوله دفاعا عن ابن عربي : « وما ينسب إلى المشايخ له محامل : الأول أنه لم تصح نسبته إليهم ، الثاني بعد الصحة يلتبس له تأويل موافق ، فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه ، وإنما يعلمه العارفون ، الثالث أن يكون ذلك صادر منهم في حال السكر والغيبة ، والسكران سكرًا مباحا غير مؤاخذ ولا مكلف » (٢) .

هذا وابن عربي دائما يؤكد أن تحصيل المعرفة لا يتم إلا عن طريق التقوى وسلامة العقيدة وقوة الإيمان وحسن العمل .

الحملات التي وجهت ضده :

وقد تعرض « ابن عربي » لحملة قاسية في حياته وبعد مماته ، بناء على ما ورد في كتبه المنظومة والمنثورة من عبارات ، وقف عندها البعض ولم يستطيعوا استساغتها ، وقد مر بنا كيف أنه أتهم في أثناء زيارته لمصر بالزندقة ، وقبض عليه ، وأوشك أن يلقي حتفه لولا أن قبيض الله له من شفع له وتأول كلامه .

وقد عرضت كتب التراجم لكثير من الأسباب التي تذرع بها خصوم « ابن عربي » ومن بينها القول بوحدة الوجود التي اشرت إليها .

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٨ .

كما عرضت أسماء خصومه وأسماء أنصاره .
وقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية بعض الأسماء من هؤلاء
وهؤلاء ، فذكرت من المعارضين : ابن الخياط والحافظ الذهبي
وابن تيمية وابن آياس والتفتازاني ، وعلى القساري ، والامام
جمال الدين بن محمد بن نور الدين .

وذكرت من المناصرين : مجد الدين الفيروزبادي صاحب
القاموس ، وسراج الدين المخزومي ، وكمال الدين الزملكاني ،
وقطب الدين الحموي ، وصالح الدين الصفدي ، وشهاب الدين
عمر السهروردي ومؤيد الدين الخجندی ، وكمال الدين الكاش ،
وفخر الدين الرازي ، ومحمد المغربي أستاذ الجلال السيوطي ،
وبدر الدين بن جماعة ، وسراج الدين البلقيني ، وتقى الدين
السبكي ، والجلال السيوطي ، وابن كمال باشا ، وعبد الرزاق
القاشاني وغيرهم .

وهي قائمة جديرة ببيان منزلة هذا الرجل الذي أجبر هؤلاء
جميعا - وغيرهم - على أن يكتبوا عنه مهاجمين أو مدافعين .
بعض الأسباب التي أدت الى الإنكار عليه :

أما الأسباب التي تذرع بها خصومه ، فمن بينها القول بوحدة
الوجود ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

ومن بينها قوله « بإيمان فرعون » وهذا القول غير ثابت وروده
عن « ابن عربي » فقد تحقق كثير من العلماء بأنه قد دس عليه كثير
من الآراء في كتبه . ذكر ذلك الشعرائي في اليواقيت والجواهر ،
وقرر بأنه ذكر في الباب الثاني والستين من الفتوحات بأن فرعون
من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الأبد ، والفتوحات من
أواخر مؤلفاته .

على أنه إذا ثبت ذلك في وروده عنه فإنه لم ينفرد وحده بهذا

الرأى ، فقد ذهب بعض السلف الى قبول ايمانه لما حكى عنه الله أنه قال : أمنت أنه لا اله الا الذى أمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين • وكان هذا آخر عهده بالدنيا ، وقال أبو بكر الباقلانى قبول ايمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال ، ولم يرد لنا نص صريح أنه مات على كفره ودليل جمهور السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس ، وإيمان أهل اليأس لا يقبل (١) •

وابن عربى فى اجتهاده — على نص فرض ثبوت ذلك عنه — لا يؤدى الى هذه الضجة التى أثيرت حوله وأخرجه أصحابها من دائرة أهل الايمان الى دائرة أهل الكفر ، ولعمري للفتوى بإيمان فرعون إيسر من الفتوى بكفر رجل من أهل اليقين والإيمان •

وقد أورد صاحب نفح الطيب أن بعض العلماء تأول قول الشيخ محيى الدين بإيمان فرعون أن مراده بفرعون : النفس ، بدليل قوله :

قلبي قطبى ، وقسالىبى اجفانى
سرى خضرى ، وعينه عرفانى
روحى هارون ، وكليمى موسى
نفسى فرعون ، والهوى هامانى (٢)
وعلى ذلك فيحمل كلامه على محمل الاشارات الصوفية التى يدق فهمها على كثير من العقول •

ومن الأسباب التى هوجم من أجلها ما كان يحدث به من لقاء بينه وبين أرواح بعض الأنبياء والأولياء السابقين على نحو ما سبقت الإشارة اليه ، وتلك حالة خاصة لبعض الذين اصطفاهم الله من عباده ، وقد ورد فى بعض الآثار أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف

(١) البواقيت والجواهر ص ٦٦ •

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١١٦ •

منها انتالف وما تناكر منها اختلف . وليس هناك تعارف أعظم من الاجتماع على معرفة الله ، فتلك هي الألفة التي تربط بين الأرواح العارفة برباط المعرفة المتين ، وليس ما يمنع لقاء هذه الأرواح التي لا يقف أمامها حجاب ولا يحول دون لقائها حس .

كما أن من الأسباب التي أدت الى ذلك ما كان يفيض به من تعبيرات الشوق والهيام في قصائد غزلية يظنها السامع أو القارئ موجهة الى انسان ، ولكنها في الحقيقة موجهة الى معان روحية عميقة ، واستعمل فيها الألفاظ الحسية جريا على طريقة الصوفية في رموزهم وإشاراتهم . وهو ليس وحده الذي استعمل الرموز في التعبير عن روحانياته ، ولكن كثيرا منهم لجأ الى ذلك لسببين في رأي الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان : أحدهما : أن كثيرا من نزعاتهم يخالف ظاهر الشريعة فلا يمكن الإفصاح عنها خوفا من سلطان الفقهاء الذين كانوا يتبعون الصوفية بالنكير والتشهير ، ويحاولون الزج بهم في محاكمات تنتهي في بعض الأحيان بقتلهم ، والآخر أن اللغة العادية تقصر عن أداء كل ما عندهم من معان ، لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق ، ويعبرون عن ذلك بقولهم :

وان قميصا خيط من نسج تسعة

وعشرين حرفا عن معاليك يقصر

فلم يجد الصوفية - إذن - وسيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأذواقهم إلا الرمز الذي لم يجر على قاعدة واحدة سار عليها الصوفية ، وإنما اختلف باختلاف الموضوعات التي تناولوها (١) .

يقول الدكتور محمد مصطفى حلمي : « ومن هنا ذهب فريق من المتعصبين على التصوف والصوفية تعصبا قوامه سوء النية

(١) التصوف في الشعر العربي ص ٨٧ .

أو نقص الفطرة أو العجز عن فهم الحقائق الدقيقة ، والمعاني الرقيقة الى الارجاف بالمصوقية والتشنيع عليهم ، والغض من القيم الروحية والمعاني الخفية التي تنطوى عليها الألفاظ والعبارات الغزلية والخمرية ، وأما أن هذه الألفاظ رموز وإشارات فذلك ما لا تفهمه عقول المتعصبين ٠٠ ومن هذا القبيل ما وقع في حق محيي الدين ابن عربي ، إذ ثار به وشنع عليه كل من العامة ورجال الدين عندما وقفوا على ما نظمته من شعر في حبه الإلهي ٠٠» (١)

ومن الأسباب التي أدت الى مهاجمته ما كان يحدث به تجليات وإشراقات كانت تحدث له ، لا يجد لها الناس علة عقلية ممكنة ومن ذلك ما حدث به في أثناء وجوده بمصر ٠ وليس بغريب أن تثير أمثال هذه الإشراقات والتجليات ثائرة الذين لم يشاهدوا ما شاهد « ابن عربي » وأمثاله ممن ساروا على هذا الدرب الشاق المضيء ٠

ولقد كان الشسيخ الأكبر يتوقع ذلك فقد قال : « ولقد وقع لنا وللمعارفين أمور ومحن بواسطة اظهارنا المعارف والأسرار ، وشهدوا فينا بالزندقة وآذونا أشد الأذى ، وصرنا كرسول كذبه قومه وما آمن معه الا قليل » (٢) ٠

والشعراني أحد الذين وقفوا في صف « ابن عربي » ووصفه بأنه من أكابر أهل العطايا الذين كشف لهم الحق عن جمال وجهه الباقي فتلألأت سبحاته بالأنوار الساطعة الى يوم التلاق ، وحكم على من تعرض لتخطئته أو تكفيره بالجهل والحرمان وعدم الفهم وضعف الايمان (٣) ٠

(١) الحب الإلهي في الصوف الإسلامي الدكتور محمد مصطفى حلمي

ص ١٠٠ ٠

(٢) البواقيت والجواهر ص ٣١ ٠

(٣) المرجع السابق ص ١٥ ٠

والخوارق التي تظهر للأولياء إنما هي إكرامات الله لهم إفاضها عليهم تقوية لعزائمهم ، وحثا لهم على الجهاد وتأسيسا لهم في مضيقهم نحو غايتهم ، وما يحدث لهم من اشراق على بعض الأجسام المادية إنما هو أثر من آثار تجلي الجمال الإلهي الذي يحيل الظلام نورا والحس معنى والمادة روحا ، وما ذلك إلا صدق لقول الحكيم العزيز « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

ولقد كان لنا أخ ادخره الله عنده ، حدثنا مرة أنه مرّت عليه أوقات كان يرى فيها كل شيء أمامه نورا خالصا لا حدود له ، حتى الأجسام والحواجز والأشجار كانت في نظره كوائن نورانية خالصة ، لذلك كان يتردد في أن يطلق عليها أسماءها العرفية لأنها لم تعد تنطبق عليها كما يراها في هذه الآونة . ولقد قضى هذا الأخ إلى جوار ربه راضيا مرضيا .

ولو تأملنا معنى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » لرأينا مصداق ذلك فسبحان من أشرق الوجود بنوره وعم العالم ضياؤه ، وقد ابتهل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

ولعل الرافعي يقصد هذه المعاني بتعبيره : « فإن الكون كله جوهر واحد هو النور ، حتى الجبل هو نوري صخري ، وحتى البحر هو نور مائي ، وحتى الحديد والذهب والتراب كل ذلك نور صرفته القدرة الإلهية تصريفها المعجز ، فكان على ما نرى ، ظاهر مخيل يلائم نقصنا وعجزنا ، وحقيقة قادرة على غير ما نرى » (١) .

على أنه لا يمكن أن نبرى بعض خصوم «ابن عربي» عن شهوة الحقد التي يبتلى الله بها بعض الناس فينكرون على الناجحين أحوالهم ، ويترصدون لهم الطرق ، ويبشون أمامهم الفتن ويزرعون

(١) وحى القلم ج ٢ ص ٢١٥ .

الشوك ، ويدسون عليهم ما هم منه براء . محاولين بذلك الحط من قدرهم والاضعاف من شأنهم ، وتلك حالة عامة تكاد توجد في كل عصر ومكان .

قال المناوي : « وفريق قصد بالانكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه لكونه وجد قرينه (ومعاصره) يعتقدونه وينتصرون له ، فحملته حمية الجاهلية على معاكسته ، فبالغ في خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه ، وقد شهود عود الخذلان والخمول على هذا الفريق وعدم الانتفاع بعلومهم وتصانيفهم على حسنها » (١) .

ولو تتبعنا سير القادة والعظماء والمصلحين في كل زمان ومكان لوجدنا صحة انطباق هذه القاعدة التي لاتكاد تتخلف ، ويستشهد الشعرائي في طبقاته وفي غيرها من الكتب على صدق ذلك ببعض الحوادث التي وقعت للمصالحين والناهين ، ويضرب المثل بما لاقاه الأئمة المجتهدون من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل . وبما لاقاه ذو النون والسلمي وابن خلكان والبساطمي والتستري والجنيد والشاذلي والعز بن عبد السلام وغيرهم .

وليس بغريب ، فهذه المحن هي التي تصهر الرجال وتصنعهم ، وقد صدق جل وعز ، إذ يقول « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ » وجاء في التوراة : ما كان رجل حليم في قوم قط إلا بغوا عليه وحسدوه (٢) .

وجوع بعض المنكرين عليه عن انكارهم :

ولو استنطقنا كتب « ابن عري » الزاخرة لشهدت له بكل فضل ، وأثنت عليه الثناء الأوفى ، وآثاره شاهدة بفضله ناطقة

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩١ .

(٢) راجع البراقيت والجواهر ص ١٦ ما بعدها .

بذكره الى جانب ما فاضت به السنة المعاصرين له من المنصفين
ومن ساروا على نهجه وانتفعوا بعلومه وأدبه .

وقد شهد له كثير من هؤلاء بالتقدم والمعرفة التي كان من حقه
علينا أن نثبت طرفا منها ، كما رجع من الخط عليه بعض من أنكروا
عليه أولا .

ومن هؤلاء « الحافظ الذهبي » وهو أبو عبد الله شمس الدين
الذهبي الحافظ ، محدث وقته ولد سنة ٦٧٣ هـ وتوفي سنة ٧٤٨ هـ
بدمشق . فقد شهد « لابن عربي » وقال في حقه : « ان له توسعا
في الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا في التصوف وتواليف
جمة في العرفان ، ولولا شطحة في كلامه وشعره لم يكن به بأس ،
ولعل ذلك وقع منه في حال سكره وغيبته فيرجى له الخير » (١)
وقال أيضا : « ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلا » (٢) .

ومنهم العز بن عبد السلام شيخ الاسلام والمسلمين ، وأحد
أعلام الأئمة المشهورين ولد سنة ٥٧٨ هـ وكان حسن الحاضرة لطيف
الدرس وتوفي سنة ٦٦٠ هـ ، وكان ينكر على ابن عربي في أول أمره
فلما عرف مقامه شهد له ورجع عن انكاره ، وقرر : أن محيي الدين
قطب زمانه (٣) .

شهادة المحققين له :

ومن المعجبين بابن عربي الفيروزآبادي صاحب القاموس
المحيط ، وهو شيخ الاسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد
ابن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي ولد سنة ٧٢٩ هـ

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ .

وتوفي سنة ٨١٧ هـ ، وكان عظيم الاعتقاد في « ابن عربي » يحمل كلامه على خير محامله ، وطرز شرحه للبخاري بكثير من كلامه ، وألف كتابا للرد على « ابن الخياط » أحد خصوم ابن عربي سماه : الاغتباط بمعالجة ابن الخياط ، وقال عن ابن عربي « أنه شيخ الطريقة حالا وعلماء ، وإمام الحقيقة حذا ورسماء ومحبي رسوم المعارف فعلا واسما :

إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحره غرقت فيه خواطره
وهو عباب لا تكدره الدلاء ، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء ، وكانت دعواته تخرق السبع الطبايق ، وتفترق بركاته فتملا الآفاق (١) .

وتحركات همة « الفيروزآبادي » في الدفاع عن « ابن عربي » حين وجد الجدل قد ثار حوله بسبب « جمال الدين بن الخياط » اليمنى ، وكان قد كتب مسائل في درج ، وأرسلها إلى العلماء ببلاد الاسلام ، وقال : هذه عقائد الشيخ محيي الدين بن العربي ، ذكر فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لاجماع المسلمين ، مما أثار ثائرة بعض العلماء الذين بادروا من غير تثبت إلى الطعن في ابن عربي (٢) . فدعا ذلك المنصفين ومنهم « الفيروزآبادي » إلى التصدي لبيان الحق وإظهار وجه الصواب ، وتبرئة الشيخ الأكبر مما الصقه به هؤلاء .

وممن ذكر « ابن عربي » بالخير الامام العالم بالله تعالى « صفى الدين حسين بن جمال الدين الأزدي الأنصاري » في رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات عصره قال : « ورأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن العربي ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية ،

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٢) اليواقيت والجواهر ص ٩ .

وما وقر له من العلوم الروحية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة ،
وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا ، لا يكثرث بالوجود مقبلا
كان أو معرضا « (١) » .

كما ذكره بقوله « هو الشيخ الامام المحقق رأس أجلاء العارفين
والمحققين » (٢) .

وقال عنه الشيخ « محيي الدين محمد بن مسدى » في معجمه
البديع المحتوى على ثلاثة مجلدات أنه : « خاض بحار تلك العبارات ،
وتحقق بمحيا تلك الاشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولى البصر
بالتقدم والاقدام ومواقف النهايات في مزالق الاقدام ، ولهذا ما ارتبت
في أمره » (٣) .

ويدفع عنه « ابن العماد » بقوله : « وقع له في تضاعيف كتبه
كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها ، وكانت سببا لاعراض كثيرين ممن
لم يحسنوا الظن به ، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة
المحققين والعلماء العاملين والأئمة الوارثين : ان ما أوهمته تلك
الظواهر ليس هو المراد ، وانما المراد أمور اصطلاح عليها متأخرو
أهل الطريق غيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون ، فاصطلحوا على
الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد غير مباليين بذلك لأنه
لا يمكن التعبير عنها بغيرها » .

ويروى الشيخ « برهان الدين البقاعي » في معجمه : « حكى لى
الشيخ تقى الدين أبو بكر بن أبي الوفا المقدسى الشافعى قال :
« وهو (أى ابن عربى) أمثل الصوفية في زماننا » (٤) .

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١١٢ .

(٢) دائرة معارف البستانى ج ١ مادة ابن عربى .

(٣) نفح الطيب ج ٧ ص ١٥٩ .

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦٠ وما بعدها .

ويعمل الشيخ « زين الدين الخافي » عبارات « ابن عربي » الموهمة بقوله : « ان العبد اذا تخلق ثم تحقق ثم جذب اضمحلت ذاته وذهبت صفاته وتخلص من السوى ، فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق فيطلع على كل شيء ويرى الله عند كل شيء فيغيث بالله عن كل شيء » (١) .

وقال المناوى « والذي اعتقده ولا يصح غيره ان الامام « ابن عربي » ولى صالح وعالم ناصح ، وانما فوق اليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه . على أنه دست في كتبه مقالات قدره يجلب عنها » . وفي رسالة « لابن كمال باشا » وجهها في توضيح مناقب « ابن عربي » جاء فيها : « أنه مجتهد كامل ومرشد فاضل ، له مناقب عجيبة وخوارق غريبة وتلامذة كثيرة مقبولة عند العلماء والفضلاء ، فمن أنكره فقد أخطأ ، وان أصر في انكاره فقد ضل يجب على السلطان تأديبه » .

وتذكر دائرة معارف البستانى عنه « وقد أجمع المحققون على جلالته في سائر العلوم كما تشهد بذلك كتبه ، وما أنكر عليه من أنكر الا لدقة كلامه لا غير ، فأنكروا على من يطالع من غير سلوك طريق الرياضة خوفا من حصول شبهة في معتقده » (٢) .

وسئل عن « ابن عربي » الشيخ « قطب الدين الحموي » حين رجع من الشام ، فقليل له : كيف وجدت الشيخ محيي الدين ؟ فقال : وجدته في العلم والزهد والمعارف بحرا زاخرا لا ساحل له ، قال وأنشدني الشيخ بلفظه من جملة أبيات :

تركنا البحار الزاخرات وراءنا

فمن أين يدري الناس أين توجهنا (٣)

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ وما بعدها .

(٢) دائرة معارف البستانى ج ١ مادة ابن عربي .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

وقال عنه صلاح الدين الصفدى : « من أراد أن ينظر الى كلام
أهل العلوم الدينية فليُنظر في كتب الشيخ محيى الدين بن العربى
رحمه الله » (١) .

وذكر الشعرانى في كتابه اليواقيت والجواهر وفي غيره من الكتب
عددا كبيرا من المثنيين على « ابن عربى » وكلهم من الأعلام الأفاضل
مثل قطب الدين الشيرازى ، ومؤيد الدين الجندى ، وفخر الدين
الرازى ، ومحيى الدين التوى ، والامام ابن سعد الياقى ، ومحمد
المغربى الشاذلى شيخ جلال الدين السيوطى ، وسراج الدين
المخزومى ، وبدر الدين بن جماعة ، كما ذكر جملة من أقوالهم التى
يمجدون فيها الشيخ الأكبر وينسبونه الى الفضل والكمال .

ومن الشيوخ من ألف كتباً في الدفاع عن ابن عربى ورد المعارضين
عنه كما حدث من الفيروزى والشمسعرانى ، وكما حدث من
جلال الدين السيوطى الذى ألف كتاباً سماه تنبيه الغبى في تبرئة
ابن عربى . رداً على كتاب : تنبيه الغبى الى تفكير ابن عربى ، الذى
ألفه برهان الدين البقاعى ، وكما حدث من سراج الدين المخزومى
الذى ألف كتاباً سماه : كشف الغطاء عن أسرار محيى الدين .

وجملة القول : فان « الذين اكبروا ابن عربى اكباراً خالصاً
وحسن اعتقادهم فيه بحيث لم تشبهه شائبة من تنكيك فيه أو تكفير
له ، فكثيرون لا يتسع المقام لاحصائهم واستقصاء آرائهم » (٢) .
وحسبنا ما ذكرنا منهم على سبيل المثال لا على سبيل الاستقصاء .

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

(٢) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٧ .

آثار ابن عربي

(١) أولاده :

ذكر المقرئ في نفح الطيب أن « ابن عربي » ولد له غلام في « ملطية » في رمضان سنة ٦١٨ هـ في أثناء رحلته إليها وقد أسماه « سعد الدين » .

وقد شب هذا الغلام على نهج أبيه ، فسمع الحديث وقام بالتدريس ونبغ في الأدب وقال الشعر الجيد الذي جمع في ديوان وقد توفي سنة ٦٥٦ هـ .

وله ابن آخر اسمه عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عربي توفي بالصالحية سنة ٦٦٧ هـ ، ودفن هذان الأخوان بجوار أبيهما في سفح جبل قاسيون بقرية القاضي ابن الزكي الذي كان يجلس الشيخ أجلا عظيما وأنزله داره وأجرى له عطاء يوميا قدره ثلاثون درهما وزوجه ابنته فلما توفي دفن بمدفن أسرته .

كما أعقب « ابن عربي » بنتا أسماها « زينب » وقد ذكر أبوها عنها أنها منذ طفولتها الأولى كانت تصاحبها آيات خارقة .

(ب) تلاميذه وأخوانه :

للشيخ الأكبر تلاميذ وأخوان كثيرون • يضيق المقام عن الحديث عنهم بالتفصيل ، ولكننا نشير الى بعضهم •

فمن تلاميذه الذين تحدث عنهم في كتبه : بدر الدين الحبشى • وكان ملازما له ، وأثيرا لديه • وقد أشار في كتابه الفتوحات المكية اليه بقوله :

وأما رفيقى قضياء خالص ونور صرف حبشى اسمه عبد الله بدر لا يلحقه خسف يعرف الحق لأمله فيؤديه ويوقفه عليهم ولا يعديه قد نال درجة التمييز وتخلص عند السبك كالذهب الابريز ، كلامه حق ووعد صدق • وقد صاحب الشيخ مدة ٢٢ سنة • وتوفى في ملطية « مقدمة الفتوحات ط الهيئة المصرية العامة للكتاب » •

ويذكر بعض المؤلفين ان من تلاميذه ابن الفارض • واتجه النابلسى شارح ديوان عمر بن الفارض هذا الاتجاه عند شرحه لبعض قصائد الديوان^(١) •

ومن تلاميذه وأبرزهم « صدر الدين القونوى » واسمه محمد ابن اسحاق الذى كان له فضل كبير فى المحافظة على مؤلفاته ونشر تعاليمه وعلومه •

ومن أصدقائه الكثيرين الذين كان يجلهم الشيخ « أبو محمد ابن عبد العزيز التونسى » الذى استضاف ابن عربى فى أثناء زيارته لتونس •

ومنهم « مكين الدين الأصقهانى » امام مقام ابراهيم بمكة •

ومنهم « فخر الدين الرازى » الذى كان يكتابه كثيرا •

(١) راجع ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٩٣ •

ومنهم « أبو العباس الحرار » صاحب المناقب المشهورة .
ومنهم « أبو عبد الله زكريا بن محمود القاضي المعسروف
بالقزويني » صاحب عجائب المخلوقات وغيره من الكتب . وغير
هؤلاء كثير .

(ج) مؤلفاته :

الشيخ الأكبر ترك عددا لا يحصى من المؤلفات ، ويبدو أن كثيرا
من هذه المؤلفات قد فقد ، فقد حدث الفيروزآبادي : « وقفت
على أجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها ، وأجزته أن يروى
عني مصنفاتي ومن جملتها كذا وكذا ، حتى عد نيفا وأربعمائة
مصنف » (١) .

وقد ذكرت مصادر مختلفة أن ابن عربي له ما يقرب من ثلاثمائة
مصنف ، فدائرة المعارف الإسلامية تقول « ويبلغ ما بقي من
توالياه مائة وخمسين كتابا ، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف
ما ألفه ابن عربي في الواقع » (٢) .

وتقول دائرة المعارف البريطانية « أنه كتب ٢٨٩ كتابا نعرف
منها ١٥٠ كتابا ذكرها بروكلمان في كتابه الأدب العربي » (٣) .

وقد بذل « بروكلمان » المستشرق الألماني مجهودا مشكورا في
حصص ما بقي من كتب ابن عربي ، وضمنها موسوعته الضخمة التي
تضم أسماء الكتب والمؤلفين العرب ، وأفرد لهذه الكتب ما يقرب من
ثمانين صفحات تحمل الأولى منها رقم ٥٧١ .

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٣٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ مادة ابن عربي .

(٣) دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٢ ص ٣٣ .

وهذا ثبت بأسماء هذه الكتب التي ذكرها بروكلمان (١) .

- ١ - أجازة للملك المظفر بهاء الدين غازي الملك العادل في جميع ما رواه عن أشياخه وما له من نثر ونظم ، وهو في دمشق سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م ٢٠ - رسالة في تعليم المريدين ٣٠ - كتاب العظمة (تفسير للفتحة) ٤٠ - كتاب التفسير بالحقيقة ٥٠ - مشكاة الأنوار فيما روى عن الله سبحانه وتعالى من الأخبار ٦٠ - الأحاديث القدسية ٧٠ - تذكرة الخواص وعقيدة أهل الاختصاص ٨٠ ، ٩ - رسالة العلوم من عقائد علماء الرسوم (مختارات) ١٠٠ - صحيحة اليوم بحوادث الروم (شعر باليسيط) ١٤٣ بيتا ١١٠ - الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية والملكويتية ١٢٠ - فصوص الحكم ١٣ - شجرة الوجود والبحر المورود - مطبوع تحت شجرة الكون ١٤ - عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وششمس المغرب ١٥ - رسالة كنه ما لا بد للمريد منه ١٦٠ - الأسرا إلى المقام الأسرى (في نفس المخطوط يوجد عنوان ٠ الأسرا واختصار رحلة العالم الكوني إلى الموقف الأعلى) ١٧٠ - مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية ١٨٠ - التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية ١٩٠ - مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ٢٠ - مقام القرية (وفك الكربة) ٢١٠ - الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار ٢٢٠ - الخلوة ٢٣٠ - انشاء الدوائر الاحاطية على الدقائق على مضاهاة الانسان للخالق والخلائق ٢٤ - الحق ٢٥٠ - عقلة المستوفز ٢٦٠ - تحفة السفارة إلى حضرة الكرام البررة ٢٧٠ - الحجب ٢٨٠ - وصف تجلى الذات (منسوب إليه) ٢٩٠ - حلية الأبدال وما يظهر فيها من المعارف والأحوال ٣٠ - شجون المشـجـون وقتون المفتون ٣١٠ - الشواهد ٣٠

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ج ١ ص ٥٧١ .

٣٢ - الاتحاد الكونى فى حضرة الاشهاد العينى ٣٣٠ - كيمياه
 السعادة ٣٤٠ - الافاضة لمن اراد الاستفاضة ٣٥٠ - منزل المنازل
 ٣٦ - الموزانة (مقارنة بين الدنيا والآخرة) ٣٧٠ - نحت الأرواح
 (كيف خلق الله الروح والمنازل التى لا بد لها ان تمر عليها لمعرفة
 الله) ٣٨٠ - الأمر المحكم المربوط قيما يلزم أهل الطريق من
 الشروط ٣٩٠ - الاعلام فيما بنى عليه الاسلام ٤٠٠ - الاعلام
 باشارات أهل الالهام (الحكمة الالهامية فى الرد على الفلسفة)
 ٤١ - الغناء فى المشاهدة ٤٢٠ - مراتب علوم الوهب ٤٣٠ - فى
 الأزل ٤٤٠ - شق الجيب ورفع حجاب الريب عن اظهار أسرار
 الغيب ٤٥٠ - تفسير آية الكرسي ٤٦٠ - اشارات القرآن فى عالم
 الانسسان ٤٧٠ - كتاب السبعة وهو كتاب الشأن ٤٨٠ -
 تنزلات الاملاك للأملاك فى حركات الأفلاك ٤٩٠ - توحيد التوحيد
 ٥٠ - التدقيق فى بحث التحقيق ٥١٠ - القسم الالهى باسم الربانى
 ٥٢ المضادة فى علم الظاهر والباطن ٥٣٠ - الغايات فيما ورد من
 الغيب فى تفسير بعض الآيات ٥٤٠ - تاج الرسائل ومنهاج الوسائل
 ٥٥ - الرسالة المفيدة ٥٦٠ - الدرة الفاخرة فى ذكر من انتفعت
 بهم فى الآخرة ورسالة روح القدس (رسالات القدس فى نفحات
 النفس) ٥٧٠ - الجلالة ٥٨٠ - جواب عن مسألة السبيحة
 السوداء وهى الهيولا ٥٩٠ - رسالة النشاطين ٦٠ - مفاتيح
 الغيب ٦١٠ - تهذيب الأخلاق ٦٢٠ - المدخل الى معرفة مأخذ
 النظر فى الأسماء والكنيات الالهية ٦٣٠ - القطب والنقباء
 ٦٤ - وسائل المسائل ٦٥٠ - تاج التراجم ٦٦٠ - ترجمان
 الألفاظ المحمدية ٦٧٠ - الاصطلاحات الصوفية ٦٨ - شرح
 الألفاظ التى تداولها الصوفية ٦٩ - المقتنع فى ايضاح السهل
 الممتنع ٧٠ - الحروف الثلاثة التى انعطفت أواخرها على أوائلها
 ٧١ - الألف وهو كتابة الأحدية ٧٢ - الباء وهو مفتاح دار
 الحقيقة ٧٣ - كتاب الباء وهو كتاب السهر ٧٤ - مفتاح

الجفر الجامع ٧٥٠ - جفر الامام على بن ابي طالب ٧٦٠ - أسرار
 الحروف ٧٧٠ - جفر النهاية ومبين خبايا أسرار كنوز البداية
 والغاية ٧٨٠ - فائدة (الالعب السحرية بالحروف) ٧٩٠ - مائة
 حديث وواحد قدسية ٨٠٠ - نسب الخرقه ٨١٠ - التجليات
 الالهية ٨٢٠ - عظة الألباب وذخيرة الاكتساب (منسوب اليه) .
 ٨٣ - انشاء الجسوم الانسانية ٨٤٠ - نتيجة الحق ٨٥٠ - عيون
 المسائل ٨٦٠ - توقيعات ٨٧٠ - أسرار الوجود ٨٨٠ - أسرار
 المحبة ٨٩٠ - بلغة الغواص في الأكران الى معدن الاخلاص في معرفة
 الانسان ٩٠٠ - قبس الأنوار وبهجة الأسرار ٩١٠ - الفرق الست
 الباطلة وذكر أعدادها ٩٢٠ - الأجوبة اللائقة عن الأسئلة الفاتكة .
 ٩٣ - الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة ٩٤٠ - مرآة المعاني
 لادراك العالم الانساني ٩٥٠ - ثواب قضاء حوائج الاخوان واغاثة
 اللفهان ٩٦٠ - الامام المبين الذي لا يدخله ريب ولا تخمين ٩٧٠ -
 التنزلات الموصلية ٨٩٠ - جدول عظيم في استخراج العقل من القرآن
 العظيم ٩٩٠ - أسفار من سفر نوح ١٠٠٠ - رسالة العبادة .
 ١٠١ - شرح كتاب خلع النعلين في الوصول الى حضرة الجمعين .
 ١٠٢ - رسالة في الأحدية . (أسئلة حكيم ترمذى) ١٠٥٠ - رسالة
 أرسلها لأصحاب الشيخ عبد العزيز بن محمد المهدي ١٠٦٠ - رسالة
 الغوثية ١٠٧٠ - رسالة أرسلها الى فخر الدين الرازي ١٠٨٠ -
 رسالة في تصوير آدم على صورة الكمال ١٠٩٠ - أربع رسائل
 تصوف ١١٠٠ - نسخة الحق ١١١٠ - لغة الأرواح ١١٢٠ -
 الصلاة الأكبرية ١١٣٠ - أوراد الأيام والليالي ١١٤٠ - أوراد
 الأسبوع ١١٥٠ - الصلاة الفيضية ١١٦٠ - وصية ١١٧٠ -
 الحكم الالهية ١١٨٠ - الصحف الناموسية والسجف الناموسية .
 ١١٩ - الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية ١٢٠٠ - حكم .
 ١٢١ - العبادة ١٢٢٠ - اللمع الأفقية ١٢٣٠ - محاضرات
 الأبرار ١٢٤٠ - ترجمان الأشواق ١٢٥٠ - ديوان (الديوان

الأكبر (١٢٦٠ - ديوان الأشواق (الهجاء الأبعد على ترتيب
حروف الأبجد (١٢٧٠ ديوان المرتجلات ١٢٨٠ - المبشرات
١٢٩ - تنزل الأرواح بروح الاله ١٣٠٠ - القصيدة الثائية
١٣١ - منهاج العارف والمتقى ومعراج السالك والمرتقى ١٣٢ -
المبشرات الميمونة ١٣٣ - قصيدة في المناسك ١٣٤ - الجواب
المستقيم ١٣٥ - رسالة تحقيق وجوب الواجب لذاته ١٣٦ - في
سر الحروف ١٣٧ - نجعات الأفلاك ١٣٨ - الدرر .

وقد ذكرت دائرة المعارف للبستاني له ما يقرب من خمسين
مؤلفا من بين هذه المؤلفات . وهذه المؤلفات التي ذكرت على ضخامة
عدها هي نصف مؤلفات ابن عربي فقط ، على رأى الذى يقول ان
مؤلفاته مائتان وثمانون كتابا أو ثلاثمائة كتاب ، وهي ثلث مؤلفاته
عند من يقول نيف وأربعمائة كتاب .

وأيا كان هذا أو ذاك فهو نتاج ضخمة يشهد لصاحبه بالمقدرة
الخارقة الفائقة ، وهو وإن كان بعض هذه الكتب صغير الحجم ،
الا أن بعضها كبير الحجم ، فقد بلغ أحد تفاسيره ستين سفرا (١)
ولم يتمه ، فقد وقف فيه عند قوله تعالى « وعلمناه من لدنا علما »
وله تفسير آخر صغير في ثمانية أسفار ، وكتاب الفتوحات المكية
بلغت فصوله خمسين وستمائة في أكثر من أربعة آلاف صفحة
مطبوعة بحروف صغيرة وقد حققته أخيرا الهيئة المصرية العامة
للكتاب ونشرته في طبعة أنيقة صدر منها عدة أجزاء .
على أن المسألة ليست بكثرة الأوراق وتضاعف الأجزاء ،
ولكنها بما تحويه هذه الأوراق من أسرار ومعارف ، والشيوخ

(١) نفع الطيب ج ٧ ص ١٢٩ هامش .

الأكبر له في ذلك القدح المعلى والشاؤ الذى لا يلحق بشهادة فحول العلماء وأجلاتهم .

والملاحظ أن تأليف الشيخ الأكبر تدور حول التصوف فيما عدا أحد تفسيريه الذى يجرى فيه على طريقة التفسير التقليدى ، ولم يتم هذا التفسير ، أما التفسير الآخر فيجرى فيه على طريقة الصوفية في اشاراتهم وأذواقهم . على أن بعض الآراء تقول ان هناك تفسيراً مدسوساً عليه نشرت منه بعض دور النشر عدة أجزاء ثم توقف لذلك .

وله من الحديث عدة كتب في كل منها مجموعة من الأحاديث القدسية ، وله بدار الكتب كتاب لم يشر اليه بروكلمان يحمل اسم « أصول الفقه » برقم ٦١٢ . أما بقية كتبه فتناول فيها التصوف ودقائقه وأسراره ، حتى الكتب الأدبية كتب صوفية بما في ذلك « محاضرة الأبرار » الذى يحشد فيها كثيراً من الأسرار الصوفية وقصص المتصوفة وبعض هذه الكتب دقيق غريب ككتاب « الدوائر » الذى يشرح فيه بالأشكال الهندسية آراءه في الكون .

ويفسر في كتاب مواقع النجوم أسرار العبادات ومراحل الطريق في الوصول الى الله وقد ألفه في « المرية » بالهام من الله وتوجيه منه .

ويبدو أن الشيخ الأكبر في كتاباته كان يخضع لهذا التوجيه وذلك الإلهام ، فإنه قرر في أكثر من موضع أن ذلك الكلام لم يكن اختياراً له ولكنه من الهام الله ، نقل عنه الشعراني في الكبريت الأحمر قوله : « واعلم أن جميع ما أتكلم به في مجالسى وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فاني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والامداد منه ، كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى ومناجاته بكلامه » وكذلك قوله « واعلم أن جميع ما أكتبه في تأليفي

ليس هو عن روية وفكر ، وإنما هو من نثرت روعى على يد ملك
الالهام ، وكذلك قوله « جميع ما كتبه وأكتبه في هذا الكتاب إنما هو
من أملاء الهى والقاء ريبانى أو نثرت روحانى كل ذلك بحكم الأثر
للأنبياء والتبعية لهم لا بحكم الاستقلال » (١) .

وكل كتبه تحتاج الى دقة فهم وحسن ظن في التوفر على مطالعتها
حتى يتمكن القارئ من معرفة مقاصده منها ، وقد أشار هو الى ذلك
في الباب الثانى من الفتوحات بقوله « أقل درجات أهل الأدب مع
القوم التسليم لهم فيما يقولون ، وأعلاما القطع بصدقهم وما عدا
هذين المقامين فحرمان » (٢) .

ولكى تدرك ذلك لابد من القاء الضوء على بعض كتبه التى كانت
لها أهميتها الفائقة في جميع الآفاق العلمية والعقلية ، وهذه الكتب
هى الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم .

١ - الفتوحات المكية :

ألف الشيخ الأكبر هذا الكتاب في مكة على فترات ، وهو أجمع
كتاب في التصوف ، وتعتبره دائرة المعارف البريطانية دائرة معارف
التصوف ، وكان هذا الكتاب - ولا يزال - له أهمية كبرى بين
رجال الطريق ، فقد عبر فيه ابن عربى عن كل أدواقه ومشاهداته
وسجل فيه بدقة كل مراحل سيره ، حتى لقد استقى منه بعض
المتترجمين لحياته دقائق سيرته .

بدأ ابن عربى كتابه الفتوحات عقب ذهابه الى مكة ، وهناك
شاهد في الطواف حول الكعبة . وفي الإقامة فيها من الأسرار
والمشاهدات ما أراد أن يوقف عليه اخوانه المقربين اليه ، وفي

(١) الكبرى الأحمر ص ٤ .

(٢) الكبرى الأحمر ص ٦ .

مقدمتهم الشيخ أبو محمد عبد العزيز التونسي وتلميذه بدر الدين الحبشي ، ولذلك كان عنوانه « الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية » .

والكتاب ضخيم يحتوى على أربعة أجزاء ضخمة ، وكل جزء يحتوى على مجلدات ، وينقسم الكتاب من حيث الموضوعات الى ستة أقسام :

- ١ - القسم الأول : المعارف ويحتوى على ثلاثة وسبعين بابا
- ٢ - القسم الثانى : المعاملات ويحتوى على ستة عشر ومائة باب
- ٣ - القسم الثالث : الأحوال ويحتوى على ثمانين بابا
- ٤ - القسم الرابع : المنازل ويحتوى على أربعة عشر ومائة باب
- ٥ - القسم الخامس : المنازل ويحتوى على ثمانية وسبعين بابا
- ٦ - القسم السادس : المقامات ويحتوى على تسعة وتسعين بابا

فجملته أبوابه ستون وخمسمائة باب ، تتناول شتى العلوم والمعارف الصوفية ، كما تتناول غيرها من العلوم ، والمعارف الأخرى التى يستدعيها الحديث من فقه وحديث ومعاملات وتاريخ وسياسة وغير ذلك . يقول عنه الشنفرانى : « طالعت من كتب القسوم مالا أحصيه وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية ، لا سيما ما تكلم فيه من أسرار الشريعة ، وبيان منازع المجتهدين التى استنبطوا منها أموالهم ، فإن نظر فيه مجتهد من الشريعة ازداد علما الى علمه واطلع على أسرار فى وجوه

الاستنباط وعلى تعليقات صحيحة لم تكن عنده ، وان نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك ، أو مقرر فكذلك ، أو معبر للمقامات فكذلك ، أو عالم بالطبيعة وصناعة الطب فكذلك ، أو عالم بالهندسة فكذلك ، أو نحوي فكذلك ، أو منطقي فكذلك ، فهو كتاب يفيد أصحاب هذه العلوم أو غيرها ، علوما لم تخطر لهم على بال ، قد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء (١) .

وكتاب الفتوحات نظرا لضخامته لا يمكن أن يكون قد ألف في مدة محدودة ، وان كان بعض المصادر يشير الى أنه كان يكتب كل يوم منه ثلاث كراسات دون توقف أين كان (٢) وقال الفيروزآبادي : أنه صنف الفتوحات في مكة كتبها عن ظهر قلب جوابا لسؤال سألته عنه تلميذه بدر الحبشي ، ولما فرغ منها وضعها في سطح الكعبة المعظمة ، فأقامت فيه سنة ثم أنزلها فوجدتها كما وضعها لم يبتل منها ورقة ولا لعبت بها الرياح مع كثرة أمطار مكة ورياحها ، وما أذن للناس في كتابتها وقراءتها الا بعد ذلك (٣) .

ولكن يبدو أن ذلك كان بخصوص بعض الكتاب لا كل الكتاب ، فان الثابت أن هذا الكتاب كان آخر كتبه تأليفا ، ذكر ذلك الأستاذ أحمد يوسف نجاتي في نفح الطيب (٤) كما ذكر أنه قد انتهى من تأليفه سنة ٦٣٦ هـ ، وكان في ذلك الوقت مقيما بدمشق قبل وفاته بعامين ، كما أنه من الثابت أيضا أن هذا الكتاب لم يمكن تأليفه متتابعا ، ولكنه ألف على فترات ، ولم يتم تأليفه أيضا على حسب

(١) الكبريت الأحمر المقدمة .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

(٤) نفح الطيب ج ٧ هامش ص ١٣٦ .

الترتيب المتعارف . فقد ذكر أسين بلاثيوس أنه في سنة ٦٢٨ هـ كان يكتب أول الجزء الرابع ، وأنه في سنة ٦٣٤ كان لا يزال يكتب خاتمة الجزء الثاني وفي السنة التالية ٦٣٥ كان يكتب الجزء الثالث ، وليس هناك من يفسر سبب ذلك إلا ما ذكره هو بأن ترتيب الفتوحات لم يكن من وضعه هو ، ولكن كان بناء على ما كان يملأ عليه من توجيهات سماوية ، ولذلك نسمعه يقول : بنيت كتابي هذا - بل بناء الله لا أنا - على أفادة الخلق ، فكله فتح من الله تعالى وسلكت فيه طريق الاختصار .

ويقول الدكتور عثمان يحيى في مقدمة تحقيق الفتوحات أنه بدأ في تصنيفه بمكة عام ٥٩٩ هـ ، وأتم سفره الأول تقريبا في هذه السنة نفسها فيماعداء فصلين إضافهما فيما بعد ثم تابع الأسفار الباقية ، ويظهر أنه اكتملت لديه نسخة أولى من الكتاب أخذ يهذبها وينقحها في السنوات الأخيرة من حياته ، وهو يصرح في آخر الفتوحات أنه كتب نسخة ثانية بخط يده وفرغ منها عام ٦٣٦ هـ قبل موته بعامين .

وليس من اليسير إعطاء فكرة ولو موجزة عن هذا الكتاب الذي « يعد كنزا دفيناً » على حد تعبير مؤلف كتاب ابن عربي . اللهم إلا إذا قلنا كما قال السادة الصوفية عنه : أنه أجمع كتاب للتصوف بما احتوى عليه من دقائق التصوف وأرشاداته ، ومن الموضوعات العامة للكتاب السابق الإشارة إليها يمكن إدراك ذلك بوضوح ، كما أنه لم يهمل العلوم الأخرى ، حتى أنه ليجد فيه كل مطلع بغيته ورغبته .

ويغلب على كتاب الفتوحات الاستطراد الذي يبعث عليه الرغبة في الافادة التي هدف إليها من وضع كتابه ، كما أنه لم يغفل في كتابه ما يحتاج إليه المريد من خطوط أساسية تعينه على بلوغ هدفه وسيره في طريقه بأمان . وكثيرا ما يشير فيه إلى كتبه السابقة .

ولم يغفل ابن عربى ما يجب على المرید معرفته من أسرار
العبادة وآدابها ، مقدما له فى الجزء الأول زادا كافيا فى النية والطهارة
وأنواعها وأسرارها والصلاة وفروضها وشرائطها وأركانها وسننها
وأوقاتها وآدابها وكيفية إقامتها وأسرار أدائها وغير ذلك من ألوان
المعرفة الفقهية والشريعة التى تصل بالمرید الى أبواب المعرفة
الصوفية الشاملة •

ويعد كتاب الفتوحات سجلا لحياة الشيخ الأكبر ، فقد بين فيه
بالتواريخ خطوات حياته التى أقاد منها بعض المترجمين لها ، كما أنه
يعد سجلا لما شاهده فى تاريخ هذه الحياة الحافلة بالأسرار والأنوار
وما كشف له فيها وما لاقاه من مصاعب وما أتت له فيها من فرص
روحية •

على أن ذكر هذه الخطوات لم يأت على نظام كتابة السسير
المعروفة ، ولكنه يأتى عفوا على حسب ما تسنح به المناسبة ويستدعيه
المقام • فهو عند حديثه عن الأبدال مثلا يذكر من لقيه منهم ومتى ،
ويسجل ما دار بينه وبينهم من حديث • وعند حديثه عن التوكل يذكر
من لقيه من المتوكلين ومتى وأين وكيف كان حديثه معه وماذا أقاد
منه •

وعند حديثه عن الخضر يذكر طرفا من لقائه معه وماذا دار
بينهما من حديث وهكذا •

ومن الكتاب ندرك أن تأليفه لم يكن يسير على نمط الكتب
العادية التى تجرى على منهج معين وتسير على حسب خطة
موضوعة • ولكنه يسير على وفق ما يجرى به خاطر الروحى وقد
ذكر ذلك فى غير موضع ويقول : « وأعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات
لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكرى ، وإنما الحق تعالى يملئ لنا

على لسان ملك الالهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبيهه بقوله تعالى « حافظرا على الصلوات والصلاة الوسطى » بين آيات طلاق ونكاح وعدة وفاة تتقدمها وتتأخرها « (١) ويقول « اعلم أن العارفين انما كانوا لا يتقيدون بالكلام على ما بوبوا عليه فقط لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الالهية مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أمر بادرت لامتناله ، والفته على حساب ما حولها ، فقد تلقى الشيء الى ما ليس من جنسه امتثالا لأمر ربها » (٢) .

وفي أول بعض الأبواب نجد قصيدة من الشعر تشير الى مضمون الباب وقد لا تشير اليه وهذه الطريقة سار عليها الجيلي من بعده في كتاب الانسان الكامل . وقد أشار الشيخ الأكبر نفسه الى هذه الملاحظة ، وهي عدم اجمال موضوع الباب في القصيدة المتقدمة في بعض الأحيان بقوله : واعلم أن هذه القصيدة وكل قصيدة من أول كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها اجمال ما يأتي مفصلا في نثر الباب والكلام عليه ، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب فلا يتكرر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر ، فلينظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه نفس الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر وهي مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها الا أن يكون بين المسألتين رابطة فيطلب بعضها بعضا » .

ونظرا لخطورة هذا السكتاب وما يحتوي عليه من معلومات أثارت معسارك جدلية غير قليلة برز الاهتمام به بين الصوفية وغيرهم .

(١) الفتوحات المكية الجزء ٣ الباب ٢٤٨ .

(٢) الكبرى الأحمر : المقدمة .

ويبدو أن بعض المفرضين قد أضاف إليه ما ليس منه مما يعد منافيا للشريعة بقصد الاضرار بمؤلفه ، وحين قوبلت هذه النسخة المحرفة بالنسخة الأصلية ظهر الزيف وكانت النسخة الأصلية محفوظة « بقونية » .

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هناك كثيرا من القضايا الواردة في الفتوحات ليس من الممكن فهمها بسهولة ، ويرجع ذلك الى أن ادراكها لا يتم الا بالتمكن من الطريق الصوفي ، ومن هنا جاء التنبية الى أنه لا يحق لكل من أراد الاطلاع أن يطلع على هذا الكتاب ، وهذا الحكم ليس منصرفا في الواقع الى كتاب الفتوحات وحده ولكنه ينصرف الى الفتوحات وغيره من الكتب التي ألفها الشيخ الأكبر .

وقد شرح الجيلى كتاب الفتوحات ، كما تأثر به في كتابه المشهور « الانسان الكامل » في معرفة الاواخر والأوائل .

واختصره الشعراني في كتاب « لوائح الأنوار القدسية » ، وعاد فاختصره مرة أخرى من كتابه « الكبريت الأحمر » ، وذكر في كتاب « اليواقيت والجواهر » مسائل متعددة منه ومن ذلك مثلا قال « محيى الدين بن عربي » في صفة العارف بالله :

« هو من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق تعالى وإذا ذكر الله واستولى عليه الذكر يخيب عن الأكوان ، يهابه كل ناظر اليه ، هو مع الله بلا وصل ولا فعل ، كثير الحياء ، في قلبه التعظيم ، يقدم حق الحق تعالى على حظوظ نفسه وبطنه جائع ، ويدنه عار ، لا يأسف قط على شيء لكونه لا يرى غير الله . طيار أمد الدهر ، تبكى عينه ويضحك قلبه ، هو كالأرض يطؤه البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالمطر يسقي ما يجب وما لا يجب ، لا يقضى وطره قط من شيء ، وذلك ليدوم

افتقاره الى الله تعالى ذوقا ، شأنه الفقر والذل بين يدي الله يفتح له في فراشه كما يفتح له في صلاته وان اختلفت الواردات بحسب المواطن .

وللفتوحات مقدمة طويلة لها قصة طريفة ، هي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أحاط به الملائكة والأنبياء والأولياء والعلماء فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم للصعود على منبره ، وخلع عليه بردته البيضاء ، وألقى « ابن عربى » خطبة طويلة يقول أنها من وحى روح القدس ، وهذه الخطبة هي مقدمة الكتاب .

والمقدمة نفسها تحتوى على آرائه الروحية التى يوضح فيها مضمون موضوعات الكتاب السابق الإشارة إليها .

وبالجملة فان هذا الكتاب من الكتب التى تستحق جهد المهتمين بشئون التصوف ، فيتولونه بالتحقيق ويتعهدونه بالنشر وجودة الطبع فى ثوب أنيق جميل يليق بما يحتويه من علوم رائعة وأسرار فائقة والأذواق عالية – ويا حبذا لو تيسر اقتناؤه مع غيره من كتب هذا العبقري الفذ الذى كان يحلق فى أجواء المعرفة لا يهدأ له بال ولا يستريح من عناء التجوال – وترك من ورائه هذه الثروة الحية التى تشهد بعلو الباع ورسومه القدم وقوة التمكن .

وحمدا لله فقد تحقق جزء من هذه الأمنية العزيزة حين تضافر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وجامعة السوربون على تحقيق هذا الكتاب ونشره عن طريق الهيئة المصرية العامة للكتاب وقد ثارت ضجة أشرت إليها سابقا ، وان كان هناك تعقيب على هذه الضجة التى قامت من أجل هذا الكتاب وعقيدة صاحبه فحسبى أن أقدم هذه الفقرات التى وردت فى أول الجزء الأول منه :

« يا اخوتي المؤمنين - ختم الله لى ولكم بالحسنى - أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير الى الله تعالى فى كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئته ، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولاً وعقداً أن الله تعالى اله واحد لا ثانى له فى ألوهيته منزّه عن الصاحبة والولد ، مالك لا شريك له ، ملك لا وزير له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار الى موجد يوجد به بل كل موجود سواء مفتقر اليه تعالى فى وجوده ، فالعالم كله موجود به وهو وحده مقصّف بالوجود لنفسه • فسبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الاحسان ، كل ما سواه عن وجوده فائض •

كذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وأياكم على نفسى بالايمان بمن اصطفاه واجتباّه من وجوده ، ذلك سسيدينا محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً ••• وانى مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمته وما لم أعلم ، فهذه شهادتى على نفسى أمانة عند كل من وصلت اليه أن يؤديها اذا سئلتها حيثما كان •••

هذا وان كان ابن عربى قد أثره الله بشيء من الكشف وأعطاه جزءاً من الفتح فقد استحق ذلك عن جدارة فائقة جزاء لمجاهداته ولكل مجتهد نصيب ، على أن الفيض الالهى منحة من الله لمن شاء من عباده ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب •

وفى هذا الكشف أسرار قد ترقى وتدق وأحياناً تفيض على اللسان رغماً ولكنها تأتى محجبة بالرموز وكم لاقى أصحابها من المعارضات والانكار لأنهم تحدثوا عما لا تدركه العقول ، ولذلك صرح ابن عربى فى كتابه هذا بأن عقيدته هذه هى عقيدة العوام التى اشرت اليها بالعبارة التى استشهدت بها مختصرة من كلامه ، وهذه

العقيدة هي عقيدة الذين سلمت عقائدهم لأنهم تلقوها من ظاهر الكتاب العزيز ، وهو لذلك يدعو الى عدم تعلم علم الكلام الا لأفراد قلائل بقصد ردع الخصوم ودفع الشبه ، ويقول في حق علماء الكلام : انهم رضى الله عنهم اجتهدوا وخيرا قصدوا وان كان الذى تركوه اوجب عليهم من الذى شغلوا نفوسهم به .

وعقيدة الخاصة وان كانت مطابقة لعقيدة العوام الا أن الكشف والالهام والفتح يقويها ويؤكدها فهي اذن من عين اليقين ، وما راء كمن سمعا ، وشتان بين من يسمع ويقلد وبين من يعاين ويشاهد . والمشاهدة تزيد المشاهد بيانا وايمانا وتملؤه عقيدة وبرهانا ، ونى هذا يقول الغزالي :

فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسال عن الخبر

ويقول ابن عربى فى ذلك : وأما التصريح بعقيدة الخاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض ولكن جئت بها مبددة فى أبواب هذا الكتاب مستوفاة لكنها متفرقة ، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف قدرها ويميزها فانها العلم الحق . .

والعلوم فى رأيه على ثلاث مراتب « علم العقل وهو كل علم لك ضرورة أو عقيب نظر ، وعلم الأحوال ولا سبيل اليه الا بالذوق كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر . . وعلم الأسرار وهو العلم الذى فوق طور العقل ، وهو علم نفث روح القدس فى الروح ، ويختص به النبى والولى .

ان علوم الأسرار تلك هي التى يشير اليها ابن عباس رضى الله عنهما بقوله : عند تفسير قوله تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن » : لو ذكرت تفسيره لرجتمونى ، وفى رواية لقلت انى كافر ، ويشبهه قول الرضى :

يارب جوهر علم لو ابوح به ل قيل لي انت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون اقبح ما ياتونه حسنا

وقد اعتذر ابن عربي عن نفسه وعن غيره من علماء الصوفية الذين غلبتهم أحوالهم فباحوا ببعض الأسرار كما اعتذر أيضا عن أنكر عليهم بقوله : « وينبغي للعاقل العارف أن لا يأخذ عليهم فإن في قصة موسى مع الخضر مندوحة لهم وحجة للطائفتين ، وإن كان انكار موسى عن نسيان لشرطه ولتعديل الله إياه ، وبهذه القصة عينها نحتج على المنكرين ولكنه لا سبيل إلى خصامهم ، ولكن نقول كما قال العبد الصالح : « هذا فراق بيني وبينك » .

إن علم الأسرار عزيز وصعب المنال ومن خصائصه أن العبارة لا تستطيع أن تحتويه ، بل إذا أخذته سمج واعتاص على الأفهام ومن هنا لجأ الصوفية إلى الرمز ، بخلاف العلم النظري فإن العبارة كلما بسطته حسن وفهم معناه أو قرب عند السامع الفهم .

وبعد ، فإن هذا الكتاب كما يقول الدكتور عثمان يحيى أحد روائع الفكر الإنساني وأثر فريد في الدراسات الصوفية عامة والإسلامية خاصة ، خلاصة نتاج الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي ، وما أغزره . . . ولم ينل منا بعد حظه من الدرس والبحث عنى به في الماضي عناية ملحوظة وانتشر في المشرق والمغرب بواسطة سلسلة متصلة الأسانيد ، وشرح وعلق عليه ولخصت أجزاء مختلفة منه ، وترجعت بعض أجزائه إلى الفارسية والتركية . .

وليس في وسعي - لعجزى - تلخيص الكتاب وبخاصة في دراسة قصيرة كهذه وحسبى أن كنت في هذه العجالة واحدا من الدالين إليه الناصحين بالتوفر على قراءته ودراسته فهو كنز دفين كما قال العلماء الذين عرفوا حقه ، ولو قرأه الناظمون عليه باخلاص

لغيروا رأيهم ، وأدركوا قيمة ما فيه من جواهر فريدة ، ويكفى أن يكون مؤلفه قد ألفه للدلالة على الله وهل هناك أشرف من هذا الغرض وأسمى من هذا الهدف ؟ .

٢ - فصوص الحكم :

يعد هذا الكتاب من أشهر الكتب التي كان لها أثر في إذاعة مكانة الشيخ الأكبر ، نظرا لما يدل عليه من أخبار عن حقائق الأنبياء السابقين وعددهم سبعة وعشرون نبيا هم : آدم ، وشيث ، ونوح ، وإدريس ، وإبراهيم ، وإسحاق ، وإسماعيل ، ويعقوب ، ويوسف ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، والعزير ، وعيسى ، وسليمان ، وداود ، ويونس ، وإيوب ، ويحيى ، وزكريا ، والياس ، ولقمان ، وموسى ، وهارون ، وخالد بن سنان ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وقد ألف ابن عربي هذا الكتاب في دمشق عقب اتخاذها دار إقامة له ، ويقول في مقدمة كتابه : « أما بعد فاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أديتها من العشر الآخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمئة بمحروسة دمشق وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب ، فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم ، خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر منا ، كما أمرنا فحققت الأمنية وأخلصت النية ، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما عده لي الرسول من غير زيادة أو نقصان ، وسألت الله أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وأن يخلصني من جميع ما يرقمه بئاني وينطق به لساني وينطوي جناني باللقاء السبوحى والنفث الروحى في الروح النفسى بالتأييد الاعتصامى ، حتى أكون مترجما لا متحكما ، ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس ، المنزه عن الأغراض النفسية التي يدخلها

التلبيس ، وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائي قد أجاب ندائي .
فما ألقى الا ما يلقي الى ، ولا أنزل من هذا المسطور الا ما ينزل
به على ، ولست بنبي ولا رسول ولكني وارث ولآخرتي حارث » .

معنى كلمة الفصل :

وقد استعار كلمة الفصل للانسان الذى يمثل الحقيقة بالنسبة
لبقية أنواع العالم كما يمثل نقش الفصل فى الخاتم حقيقة
الخاتم . فكان العالم خاتم قصصه الانسان ، وهذا يبين أفضلية
الانسان على العالم ، ثم جعل الأنبياء قصصنا بالنسبة لأفراد
الانسان ، فكان الانسان خاتم قصصه الأنبياء .

وقد أشار القاشانى الى هذه التسمية عند تعرضه لشرح
أول فص من قصص الحكم قائلا : « لما استعار الفصل لنوع
الانسان وحقيقته المعبر عنه بآدم كان قلب كل انسان عارف بالله
كامل فصا هو محل حكمته المخصوصة به » كما أشار ابن عربى
نفسه الى سبب هذه التسمية عند حكمة آدم بقوله : « فهو
(أى آدم) من العالم كقصص الخاتم من الخاتم هو محل النقش
والعلامة التى يختم الملك بها على خزائنه » .

الكتاب من علوم الأسرار :

وقد عمد الشيخ الأكبر كمادته فى تأليفه الى الافاضة فى
الأسرار التى كوشف بها ، وتوصل اليها بناء على ذوقه وفهمه ،
فان العلم فى نظره ثلاثة أنواع ، كما أشار الى ذلك فى كتاب
الفتوحات ، هى علم العقل الذى يحدث بناء على النظر والتفكير
والاستدلال ، وعلم الأحوال وسبيله الذوق ، وعلم الأسرار وهذا
فوق طور العقل ، وطريقه نفث الروح فى الروح ، وهذا العلم

نوعان : نوع يدرك بالعقل والآخر على ضربين : ضرب يدرك بالذوق والثاني عن طريق الاخبار .

وهذا العلم الذى بثه فى كتابه فصوص الحكم من النوع الثالث ، الذى فوق طور العقل وجاءه عن طريق نفث الروح فى روعه كما اشار الى ذلك فى مقدمة كتابه . ولذلك فقد أوجد هذا الكتاب صدى كبيرا بين طوائف الصوفية والفقهاء وعده كثير منهم معبرا عن رأى ابن عربى فيما أسند اليه من نظرية وحدة الوجود ، ولكن ينبغى التنبيه الى ما سبقت الإشارة اليه من هذه الوحدة ، التى لا يصح تفهمها على أساس اتحاد بين قديم وحديث أو حلول قديم فى محدث ، فذلك الذى نبه الصوفية جميعهم وبخاصة الشيخ الأكبر على وجوب نفيه من الأذهان تماما لتعارضه مع جلال الذات الالهية القديمة المحيطة التى وسعت كل شئ ولم يسعها شئ ، وأن وحدة الوجود التى يقصدونها انما هى اثبات الوجود الحقيقى لواجب الوجود وأما غيره من المحدثات فلا وجود له على سبيل الحقيقة مع الله تعالى .

وقد نبه شراح الفصوص جميعهم على وجوب مراعاة هذه الدقائق ، وأفاضوا فيها وشرحوا مقصد الشيخ من عباراته الموهمة التى وردت فى الكتاب من أمثال قوله عن « نوح » .

« فما أنت هو ، بل أنت هو وتراه فى عين فى الأمور مسسرجا ومقيدا » فان المقصود نفي المماثلة من جهة وإثباتها من جهة ، نفيها من حيث أنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، وإثباتها من حيث الصفات التى يجب أن يتخلق بها الانسان فى قوله عليه الصلاة والسلام تخلقوا بأخلاق الله ، فالانسان له صفة السمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك . وهى صفات أثبتها الله جل جلاله لنفسه وعلى هذا فينبغى مراعاة أمثال هذه الاشعارات

في كلام الشيخ الذي لا يقصد منه حلولاً أو اتحاداً ، بل هي عبارات
واردة في أحوال خاصة عبر بها عن مدلولات ذاقها وكوشف بها .
وكان القصد من بثها هو الصعود بالفكر الانساني الى مرتبة عليا ،
تحثه على بذل الجهد من ادراك معرفة نفسه التي هي سبيله الى
معرفة ربه ، ولذلك نسمعه يوجه الأذهان الى التفكير في مدلولات
الكلام لادراك ما يقصد ادراكا حقيقيا لا يتنافى مع مرامي الشرع
ومقاصده :

فمن الله فاسمعوا	والى الله فارجعوا
فاذا ما سمعتم	ما اتيت به ففعلوا
ثم بالفهم ففصلوا	مجمال القول واجمعوا
ثم منوا به على	طالبيه لا تمنعوا
هذه الرحمة التي	وسعتكم فوسعوا

مراقب الأنبياء :

وقد أشار ابن عربي في كتاب القصص الى الأنبياء على حسب
مراتبهم ، فأدم أراد الله أن يظهر به سره اليه ، وشيث وهو الولد
الأول لأدم هو المظهر للفيض الالهي ، ونوح هو مظهر تنزيه الله عن
كل نقص ، وإدريس كذلك ، ولذلك أضاف نوحا الى التسبيح
وإدريس الى التقديس ، وإبراهيم عليه السلام - كان في مرتبة
التهيم ، وهو شدة التوله والعشق لأن الحق تجلى له بجلال جماله
فهام في ذلك الجمال المبرقع بالجلال ، وكان اسحق في مقام التحقق
لأنه حقق رؤيا أبيه فيه بذبحه^(١) ، وخص اسماعيل بالحكمة العلية ،
وغلبت الروحانية على يعقوب والنور على يوسف . . وهكذا .

(١) رآيه في هذا أن الدبيع اسحاق ، ولكن المعروف عند جمهور العلماء
أن الدبيع هو اسماعيل ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم: انا ابن
الدبيع .

وقد عد ابن عربى لقمان من الأنبياء ووصفه بأنه من أهل مقام الاحسان وذلك لأن الغالب على حاله عليه السلام الاحسان بالشهود العلمى والحكمة والتوحيد والاسلام فى قوله تعالى « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » وقوله « وآتينا لقمان الحكمة » والحكمة والاحسان اخوان لأن الاحسان فعل ما ينبغي والحكمة وضع الشيء فى موضعه ، ويظهر ذلك فى وصيته لايته : يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم (١) وقد اختلف العلماء فى شأن لقمان هل هو نبي أو حكيم ، « وهو لقمان بن باعورا ، ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم ، وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له : لم ؟ فقال : إلا اكفى إذا كفيت ؟ » وقيل : كان قاضيا فى بنى اسرائيل « وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا ، وقال عكرمة والشعبي : كان نبيا ، وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختر الحكمة » (٢) .

كما ذكر الشيخ الأكبر خبر النبى الذى أضاعه قومه وهو خالد بن سنان وكان مشهده الصمدية ، وهو نبى لم يبعث ، وأخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عنه : هو نبى أضاعه قومه .

وكان من قصة خالد : أنه كان قوى الهمة ، والغالب عليه شهود الأحدية ، وكان هو وقومه يسكنون بلاد عدن ، فظهرت بينهم نار عظيمة خرجت من مغارة فأهلكت الزرع والضرع ، فصمد اليه قومه على حسب ما اعتادوا منه فى دفع الملعات ، حتى يدفع عنهم أذى تلك النار ، وكانوا مؤمنين بها فأخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه من

(١) شرح القاشانى على فصوص الحكم ص ٢٧٢ .

(٢) يتصرف من الكشف ج ٢ ص ٩٢ تفسير لقمان .

خلفها ويقول : يدا يدا ، حتى بردت النار ، فرجعت هاربة منه الى المغارة التى خرجت منها ، وهو يسوقها حتى أدخلها ، ثم قال لأولاده وقومه : انى أدخل المغارة خلف النار حتى أطفئها ، فأمرهم أن يدعوه بعد ثلاثة أيام تامة ، فأنهم أن نادوه قبل انقضاءها فهو يخرج ويموت وأن صبروا خرج سالما وقد دفع عنهم مضرة النار ، فلما دخل صبروا يومين واستفزه الشيطان فلم يصبروا تمام ثلاثة أيام ، فارتابوا أنه هلك .

فصاحوا به فرجع عليه السلام من المغارة ويده على رأسه من الألم الذى أصابه من صياحهم ، فقال لهم : ضيغتمونى وأضعتم قولى وعهدى ، وأخبرهم بموته وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يوما ، فإنه يأتهم قطيع من الغنم يقدمها حمار أبتز مقطوع الذنب ، فإذا حازى قبره ووقف فلينبشوا عليه قبره فإنه يقوم ويخبرهم بجلية الأمر بعد الموت عن شهود ورؤية ، فيحصل للخلق كلهم عين اليقين بما أخبرت به الرسل عليهم السلام .

ثم مات خالد ، فدفنوه ، فانتظروا مضى الأربعين يوما وورد قطيع الغنم فجاء القطيع كما ذكر يقدمه حمار أبتز ، فوقف حذاء قبره ، فهم مؤمنو قومه وأولاده أن ينبشوا عليه كما أمرهم ، حتى يخبرهم بصدق الأنبياء والنبوات كلها ، فأبى أكابر أولاده ، وقالوا : يكون علينا عارا عند العرب أن ينبش على أبينا فيقال فينا : أولاد المنبوش ، وتدعى بذلك ، فحملتهم الحمية الجاهلية على ذلك فضيعوا وصيته وأضاعوه .

ثم بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته بنت خالد فقال لها صلى الله عليه وسلم ، مرحبا يا بنت نبي أضعه قومه (١) .

(١) شرح القاشانى على الفصوص من ٤٢٥ .

وقد وردت هذه القصصة في محاضرة الأبرار^(١) وفي حياة الحيوان للدميري^(٢) .

وختم الشيخ الأكبر فصوصه الحكمية بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مسك الختام وهو ترتيب طبيعي لتنسيق الكتاب، ويوضح ابن عربي رأيه في الحقيقة المحمدية على اعتبار أنه صلى الله عليه وسلم في مقام الفردية ، لأنه أول التعينات وكان أول دليل على ربه فهو أوتى جوامع الكلم التي هي مسسميات آدم ، فقد علم الله آدم الأسماء ، علم محمدا حقيقة هذه الأسماء ومعانيها . وهذا هو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : أعطيت جوامع الكلم . وقد أشسار الى هذه الحقيقة في مؤلفاته الأخرى : مثل الفتوحات المكية وشجرة الكون .

رأى العلماء في الكتاب :

هذا وقد ذكر الأستاذ أحمد يوسف نجاتي في نفع الطيب أن العلماء اختلفوا فيما أورده فصوص الحكم ردا وقبولا ، فبعضهم أثنى عليه وتقبله بقبول حسن وشرحه ، ومن هؤلاء : ابن الزمكاني كمال الدين محمد بن علي الأنصاري الشافعي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، وشرحه أيضا المولى عبد الرحمن بن أحمد الجامي المتوفى سنة ٨٩٨ هـ وشرحه غير هذين كثير ومنهم الشيخ عبد الرازق القاشاني وعلق على هذا الشرح الشيخ محمد الباروني .

وفي حياة الشيخ الأكبر قام تلميذه صدر الدين القونوي بشرح هذا الكتاب واستمرت بعد ذلك الشروح تتوالى ومن بينها الشروح

(١) ج ١ ص ٥٥ .

(٢) ج ٢ ص ٢٩٥ ط دار التحرير .

التي أشرنا إليها • وبذل في ذلك مجهودات وافرة تشهد بالمهارة وقوة الإدراك • وكانت هذه التفسيرات جميعها تتجه اتجاهها سنيا لا يتعارض مع ظاهر الشريعة وفي ذلك شهادة لابن عربي بأنه لم يناقض مذهب أهل السنة • وإن كان البعض من كبار الصوفية المتشددين مثل القارى الهروى المتوفى سنة ١٠١٦ هـ • وكذلك التفتازانى المتوفى سنة ٧٩١ هـ والشيخ ابراهيم محمد الحلبي الخطيب بجامع السلطان محمد خان المتوفى سنة ٩٥٦ هـ عارضوا ابن عربي في آرائه وألف بعضهم كتباً ترد على الفصوص •

وقد ترجمت أبواب الفصوص ترجمة موجزة الى الهندية ونشرت في مدينة موراس سنة ١٩٢٩م (١) •

وقد تأثر كثير من الصوفية بآراء ابن عربي في كتابه الفصوص وبخاصة في فكرة الحقيقة المحمدية التي سرعان ما اتجه اليها المادحون والشعراء والأدباء في قصائدهم وفي صيغ صلواتهم التي يمدحون فيها النبي ويصلون عليه •

ولعل البدوى وهو يكاد أن يكون معاصراً لابن عربي قد نحا هذا النحو فقد أثرت عنه هذه الصيغة « اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد شجرة الأصل النورانية ، ولعة القبضنة الرحمانية ، وأفضل الخليقة الانسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية ، ومعدن الأسرار الربانية ، وخزائن العلوم الاصطفائية ، صاحب القبضنة الأصلية والبهجة السنية والرتبة العلية ، من اندرج النبيون تحت لوائه فهم منه واليه .. » (٢) •

(١) ابن عربي ص ٩٨ •

(٢) فتح الرسول (صلوات للميرنى) •

ويبدو أن ابن عربي ليس أول قائل بهذه الفكرة فقد سبقه إليها
الحلاج وأثر عن ابن مشيس أستاذ الشاذلي المعاصر لابن عربي هذه
الصلوة :

« اللهم صل على من منه انشقت الأسرار ، وانفلقت الأنوار ،
وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت
الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله
موقنة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء الا وهو
به منوط ، اذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - الموسوط ، صلاة تليق
بك منك اليه كما هو أهله ، اللهم انه سرّك الجامع الدال عليك ،
وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، اللهم الحقنى بنسبه وحققنى
بحسبه ، وعرفنى اياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل ، واكرع
بها من موارد الفضائل ، واحملنى على سبيله الى حضرتك حملا
محفوفا بنصرتك واقذف بى على الباطل فأدمغه ، وزج بى بحار
الأودية ، وأنشلىنى من أحوال التوحيد وأغرقنى فى عين بحر الوحدة
حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس الا بها » (١) .

ومن صلوات سيدى أحمد بن إدريس التى تظهر فيها فكرة
الحقيقة المحمدية واضحة قوله : « اللهم صل على طامة الحقائق
الوجودية الكبرى ، وسر الخلوة الالهية ليلة الاسرا تاج الملكة
الالهية ، ينبوع الحقائق الوجودية ، بصر الوجود وسر بصيرة
الشهود ، حق الحقيقة العينية وهوية المشاهد الغيبية » .

قال شارح الصلوات محمد بهاء الدين البيطار : لا يخفى أن
الحقيقة المحمدية أول التنزلات من الطمس الذاتى الذى لا يعبر عنه
بعبارة ولا يرقى اليه بإشارة ٠٠ وان كانت هناك عبارة تشير اليه

(١) فتح الرسول (صلوات الميرفى) .

فهي ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ، وكنت نبيا و آدم بين الماء والطين .

لقد كانت بشرية النبي صلى الله عليه وسلم نورا محضا حتى لقد ورد عنه قوله : انى لأراكم من وراء ظهري ، وكان نور المصطفى صلى الله عليه وسلم هو المعنى بروح الله المنفوخ في آدم حيث يقول الله تعالى (ونفخت فيه من روحي) وقد أشار الى ذلك المعنى سيدي على وفا قدس الله سره :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى الثمروذ باهر حسنه عبد الجليل مع الخليل وما مجد

ولعله يقصد بالطمس الذاتى ما ورد في الأثر القدسي : كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى .

أما طامة الحقائق الكبرى فهي تشير الى قوله تعالى :

« وما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

يعنى رأى حقيقته التى هى طامة الحقائق فهي آية ربه الكبرى ،
اذ لم يكن أكبر عنها ولا أشمل ولا أجمع فما زاغ بصره صلى الله عليه وسلم وما طغى .

أما المقصود بالخلوة الالهية فهو ما كوشف به النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء من معرفة حقيقة نفسه ، تلك الحقيقة التى ظهرت في اقتداء النبيين عليهم السلام به في صلاة جامعة ، فهو امامهم وهم النائبون عنه في تبليغ دعوتهم الى أممهم ، فان الدين عند الله هو الاسلام ، ولذلك قال بعضهم في ذلك :

كل النبيين والرسل الكرام أتوا نيابة عنه في تبليغ دعواه
فهو الرسول الى كل الخلق في كل العصور ونابت عنه أفواه

ولقد ظهر ذلك واضحا في قوله تعالى : «واذ أخذ الله ميثاق
النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم
لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا
أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

خاتمة

وبعد ، فقد تتبعنا خطوات هذه الشخصية العظيمة التي تركت
اثارها واضحة في كل مكان حطت رحالها فيه .

وهي شخصية . تحتاج الى افاضسة أكثر في عرض مختلف
الجوانب التي ذكرت والتي لم تذكر .

لقد كانت حياة الشيخ الأكبر سلسلة متواصلة من العمل
والدسعى والبحث والمعرفة والتجوال ، لقد أثار الله بصيرته فذاق
وكشف وشاهد ووصل الى مكانة في المعرفة أطلق عليه من أجلها :
سلطان العارفين . والعارف فسرهُ هو بأنه من أشعر قلبه الهيبة
والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق . وفسرهُ أبو العباس
المرسى بقوله : العارف لا دنيا له ، لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه .

وكانت حياة « ابن عربي » تصديقا لهذه التفسيرين . فهو لم
تصرفه علاقة عن ربه ، ولم تكن له دنيا لأنه تركها لآخرته .

لقد كانت غايته المعرفة ، ومنذ نعومة أظفاره وهو مجد في سبيل
هذه الغاية هجر من أجلها كل لذة ، واستعذب كل عناء ، وركب
كل صعب .

لقد رأينا كيف صوبت اليه سهام الملام وكيف اعترضت طريقه
المصاعب فلم يثنه ذلك عن غايته ، وهكذا كانت حياته حافلة بالجهد

الأكبر . حتى تحقق بمختلف المقامات التي بدأها بالزهد العملي وانتهى بها الى مقام المعرفة وهو أعلى مقامات الوصول .

لقد افاض سلطان العارفين في أسرار المعرفة وتحدث عن حقائق تركت صداها العميق في آفاق الفكر الاسلامي وأبرز للتصوف مفاهيمه العليا في نواحيه الأخلاقية والنفسية والروحية ، ولذلك يعده الدكتور مصطفى حلمي من أوفر المسلمين حظا من التصوف ويقول في ذلك « ولعل محيي الدين بن عربي قد أظهرنا على اختلاف العناصر الالهية والانسانية والكونية واتساقها في كثير من مصنفاته، كما يقول : وليس من شك في أن ما يعرض له ابن عربي في مصنفاته يكفي لإظهار حقيقة التصوف الاسلامي وأنه ليس مجرد أشواق وأذواق ولا مجرد رياضات ومجاهدات ولا مجرد أحوال وأفعال وإنما هو بعد هذا كله فلسفة الهية وانسانية وكونية وأن هذه الفلسفة بخصائصها الاسلامية الخالصة هي معقد الطرافة ومناط الروعة فيما خلف ابن عربي وأشباهه من صوفية المسلمين (١) » .

إن حياة الشيخ سلطان العارفين التي تألفت في آفاق الشرق الاسلامي على مدى ثمانين عاما ليست حياة شخص عاش هذه الحقبة من الزمن ثم راح . ولكنها حياة بدأت ومازال اثرها حيا باقيا بما خلفته هذه الشخصية من مناقب وآثار ، ومعارف تحيا عليها العقول والقلوب وتقتات منها النفوس والأرواح . وتحلق في سمائها الخواطر والأذهان .

رحم الله « ابن عربي » ورضى الله عنه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين .

عبد الحفيظ قرغلي القرني

(١) مجلة منبر الاسلام جمادى الآخرة ١٣٨١ هـ .

المصادر

- ١ - الفتوحات المكية لابن عربي
- ٢ - ذخائر الأملاق شرح مرجمان
الاشواق لابن عربي
- ٣ - محاضرة الأبرار ومسامرة
الأخيار لابن عربي
- ٤ - الأمر المحكم المربوط فيما يلزم
أهل الطريق من الشروط لابن عربي
- ٥ - شجرة الكون لابن عربي
- ٦ - مواقع النجوم لابن عربي
- ٧ - شرح القاشاني على قصص
الحكم عبد الرزاق القشاني
- ٨ - الطبقات الكبرى الشعراني
- ٩ - اليواقيت والجواهر الشعراني
- ١٠ - الكبريت الأحمر الشعراني
- ١١ - ابن عربي حياته ومذهبه أسين بلاليوس ترجمة د. عبد الرحمن
بدوي
- ١٢ - شلرات الذهب لابن العماد

ترجمة د. حسين مؤنس	١٣ - الشعر الأندلسي
للمقرئ - تحقيق أحمد الرفاعي	١٤ - نفع الطيب
تحقيق شوقي ضيف	١٥ - المغرب في حل المغرب
لابن حلكان	١٦ - وفيات الأعيان
د. محمد مصطفى حلمي	١٧ - ابن الفارض سلطان العشاق
د. محمد مصطفى حلمي	١٨ - الحب الإلهي في التصوف الإسلامي
د. عبد الحكيم حسان	١٩ - التصوف في الشعر العربي
د. علي صافي حسين	٢٠ - الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ...
محمد إبراهيم الجيوشي	٢١ - بين التصوف والأدب
د. عبد الحليم محمود	٢٢ - أبو الحسن الشاذلي
د. جودت الركابي	٢٣ - في الأدب الأندلسي
طه عبد الباقي سرور	٢٤ - رابطة العنوية والحياة الروحية في الإسلام
طه عبد الباقي سرور	٢٥ - أعلام التصوف الإسلامي ...
د. زكي مبارك	٢٦ - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
د. أبو الوفا التفتازاني	٢٧ - ابن عطاء الله السكندري وتصوفه
عبد الكريم الجيلي	٢٨ - الإنسان الكامل
لابن مباد الرندي	٢٩ - شرح الرندي على حكم ابن عطاء الله

٣٠ -	ايقاظ الهمم على شرح الحكم	لابن هجينة الحسنى
٣١ -	التصوف عند المستشرقين ...	د. احمد الشرباصى
٣٢ -	وحى القلم	الرافعى
٣٣ -	تاريخ الادب العربى	لبروكتمان
٣٤ -	التصوف على مذهب اهل	للكلاباوى
	التصوف	
٣٥ -	مطهرة النفوس ودوح	للشيخ حسن رشوان
	القلوب المستطاب	
٣٦ -	الرسالة القشيرية	للقشيرى
٣٧ -	حياة الحيوان الكبرى	للمعمرى
٣٨ -	فتح الرسول	سلوت للميرفتى
٣٩ -	تفسير الكشاف للزمخشري	
٤٠ -	شرح الصلوات الاندريسية	محمد بها الدين البيطار
٤١ -	دائرة المعارف الاسلامية ..	
٤٢ -	دائرة المعارف البريطانية	
٤٣ -	دائرة معارف البستانى	
٤٤ -	دائرة معارف الشعب	
٤٥ -	الموسومة العربية الميسرة	
٤٦ -	مجلة منبر الاسلام	

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٩
البيئة والعصر	١٥
نسبه ومولده ونشأته	٢٢
إقباله على طلب العلم ، وشيوخه في طلبه ..	٢١
سلوكه الطريق الصوفي ورحلاته في ذلك	٤٣
أخلاقه	٧٩
ابن عربي الأديب ..	٨٧
ابن عربي الصوفي ..	١١١
مجاهدة وأذواق ومعارف	١٢٧
ابن عربي بين أنصاره وخصومه	١٥٥
أثار ابن عربي	١٧٥
خاتمة	٢٠٥
المصادر	٢٠٧

رقم الايداع ٨٦/١٧٠٩

الترقيم الدولي ٠ - ٠٨٦٥ - ٠١ - ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يتحدث هذا الكتاب - وهذه هي الطبعة الثانية منه - عن
شخصية لمريضة عاشت بين منتصف القرنين السادس والسابع
المجريين - وبلغت أقصى ما يمكن أن يبلغه إنسان من الكمال
الروحي والعلمي والخلقي .

وقد ترك الشيخ الأكبر أثره القوي في حياة الناس وعقولهم
بسلوكه الطيب وبما خلفه من مئات الكتب التي تشهد بسعة
المعرفة وعزارة العلم وروعة المشاهدات والفيوضات التي
أفاضها الله على قلبه

ومن أهم هذه الكتب الفتوحات الملكية

To: www.al-mostafa.com